

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



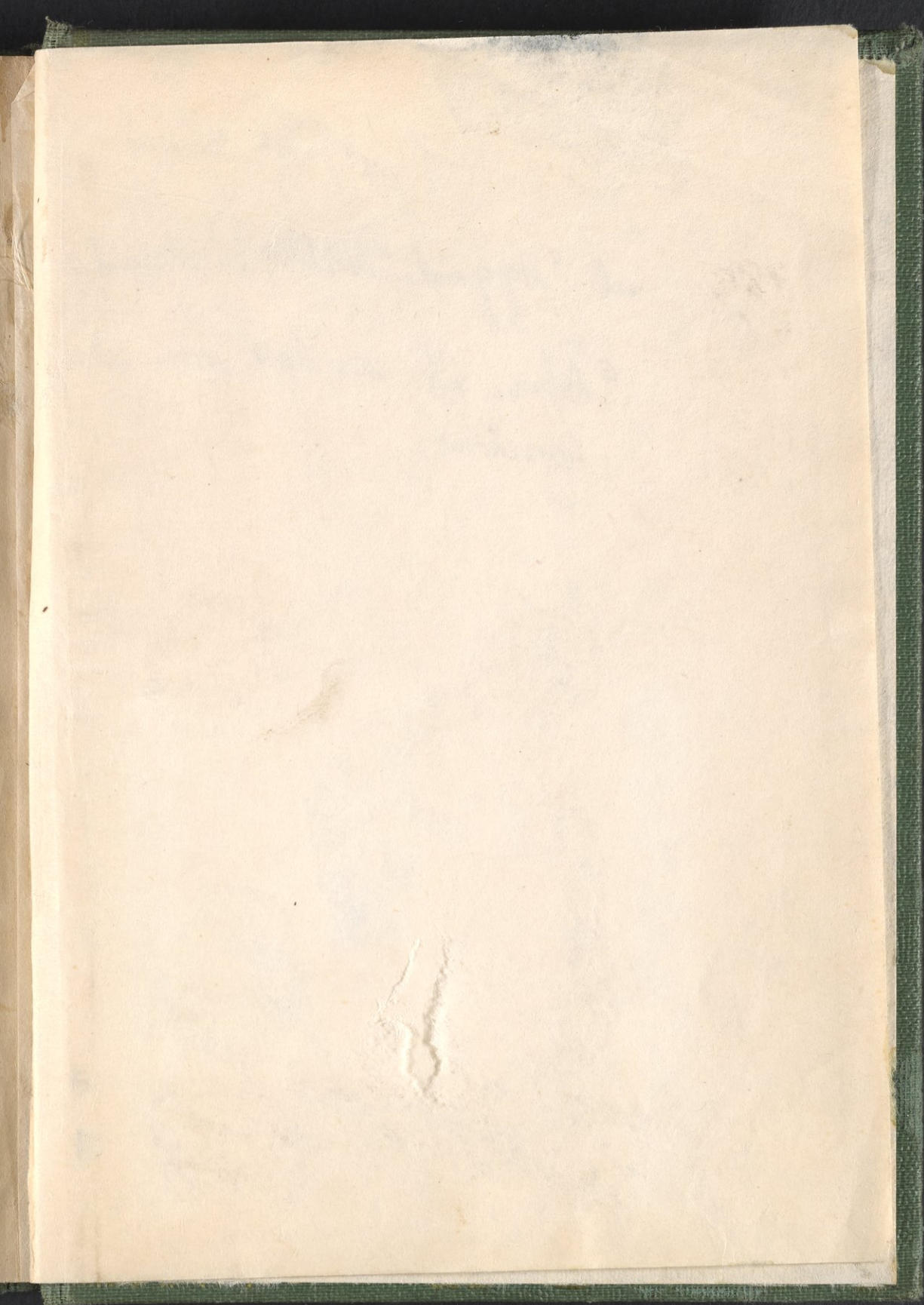
3 8534 01010 6163

02-B 922

fw. feb 6th



el- 'Aggöd, 'Abbas M. al-Muḥammad
'Alam al-sūdā wa-al-
qubūr.



مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

PJ
7814
Q6
Z5
1937

عالم السيد ود والفتيود

بقلم

عباس محمد المقاد

١٣٥٥ - ١٩٣٧

مطبعة حجازى بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

aq 11p

٨١٣, ٦

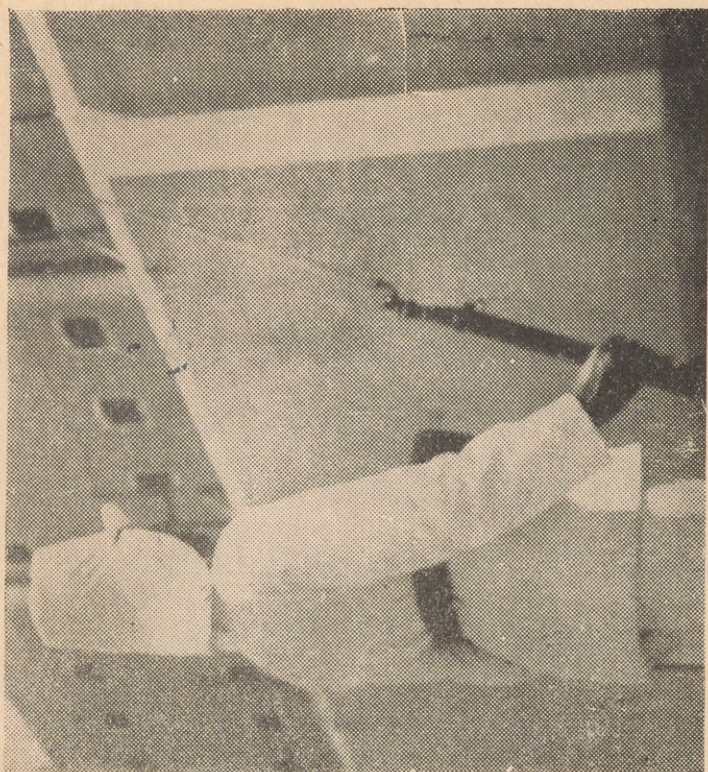
ع. ٤٤

طبع على نفقة مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد وأخوته
١٥ شارع المذايق القاهرة

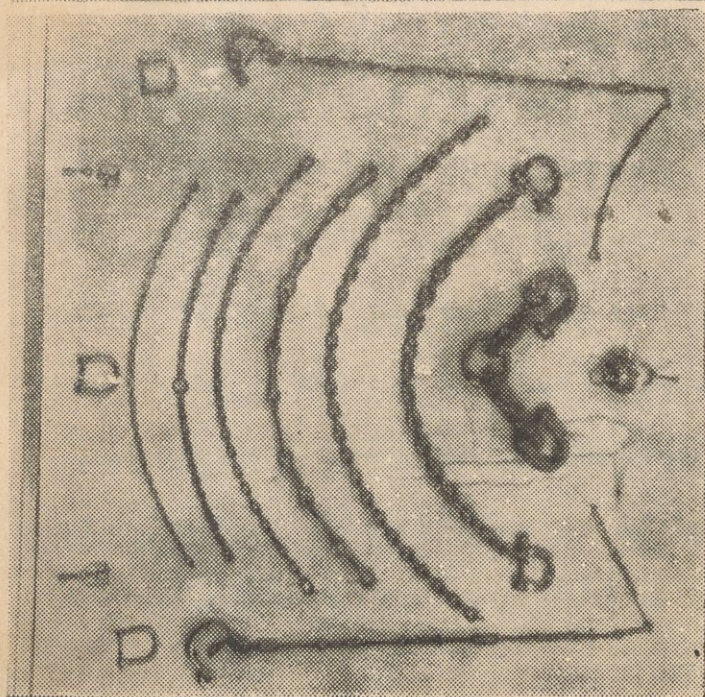
18222

٥٥٧١ - ٧٦٦١

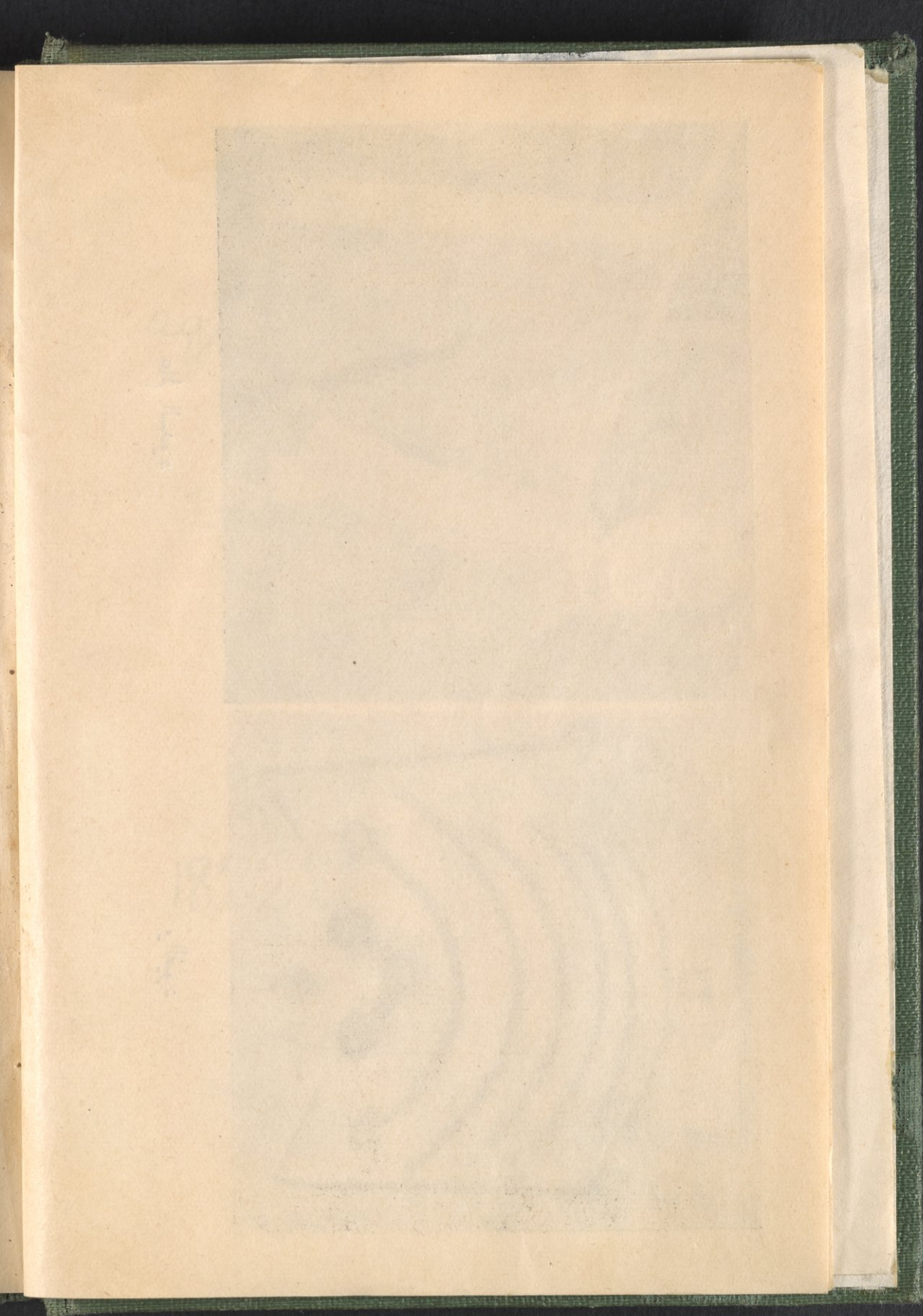
٨٣٥٩



عالم السود



والقيود



كلمة تقديم

عالم السدود والقيود الآن — عندي وعند كل عابر بسيله —
هو ذلك البناء المعزول في ناحية منزوية إلى طرف من الأطراف
في بعض أحياء القاهرة الواسعة الكثيرة ، كأنه يحبس نفرة
الناس منه ونفرتة من الناس ، واسمه في سجلات الحكومة سجن
مصر العمومي ، واسمه الشائع على الألسنة « قره ميدان »

أما يوم كنت آوى إليه ولا أرى غيره ولا أسمع بالدنيا الا
من وراء جدرانہ فلم يكن بناء معزولا ولا كانت الناحية التي هو
فيها ناحية منزوية إلى طرف من الأطراف ، ولكنه كان هو
العالم بأسره وبأرضه وسماؤه ، وكان العالم الخارجى جزءا لاحقا
به مضافا اليه ، وتلك شيمة في النفس الانسانية أن تنقل مركز
الكون كله إلى حيث تكون ، فالسجن وان كان عند السجناء
منزلا بغيضا يصبحون ويمسسون على أمل الخلاص منه وكراهة
الاستقرار فيه ، هو مع ذلك محور العالم ماداموا بين جدرانہ ، وهو
شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران ، فلو ظهرت في
السجن صحيفة كبيرة لكان لاخباره فيها مكان « الحوادث

المحلية « الظاهر في صدور الصحف السيارة ، ولكانت أخبار العالم فيه كأخبار الحوادث الخارجية ورسائل الأقاليم ومنقولات البرق والبريد ... وإذا ارتقى بعضها الى محل الرعاية والتنويه فانما يرتقى اليه بالاضافة الى مسجين من السجناء أو حادث يدور حول عقره وحجراته وخبائاه

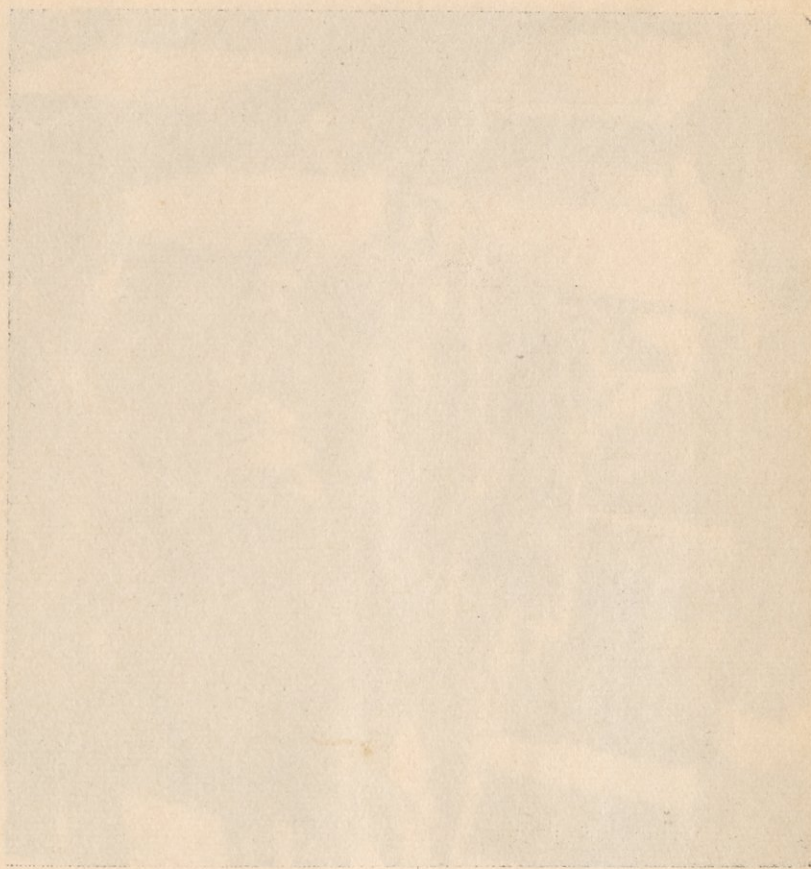
وهذه الصفحات هي خلاصة ما رأيته وأحسسته وفكرت فيه يوم كنت أنزل « عالم السدود والقيود » وأشعر به ذلك الشعور ، وانظر الى العالم من ورائه ذلك النظر : لست أعني بها أن تكون قصة وان كانت تشبه القصة في سرد حوادث ووصف شخوص ، ولست أعني بها أن تكون بحثا في الإصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الإصلاح ، ولست أعني بها أن تكون رحلة وان كانت كالرحلة في كل شيء إلا أنها مشاهدات في مكان واحد ، ولا أن استقصى كل ما رأيته وأحسسته وان كنت أقول بعد هذا ان الاستقصاء لا يزيد القارىء شعورا بما هناك ، وأنه لا فرق بينه وبين الخلاصة الا في التفصيل والتكرير ، وانما دعوى هذه الصفحات — بل خير دعواها — أنها تمكفل للقارىء بأن يستعرض عالم السجن كما

استعرضته دون أن يقيم هناك تسعة شهور كما أقمت فيه (١) ،
فان كانت الصفحات التالية عند دعواها فذاك وحده هو
حقها من القراءة وشفاعتها عند القراء ، وهي اذن قد
اختصرت تسعة شهور طوالا في مدى ساعات معدودات
يطويها القارئ بين دفتي هذا الكتاب الصغير وهو يتفكره
ولا يضيق ذرعا بالسدود والقيود ، وحسبها ذلك من نجاح
عباس محمود العقاد

(١) كانت مدة السجن من ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ الى ٨ يوليه



المؤلف بين المحكمة والسجن



الى قره ميدان

نائبه مرقع

فتحت الكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثم
احتوانا البناء المخفور الذى يعرف فى مصلحة السجون باسم
« سجن مصر العمومى » ويعرف على ألسنة الناس باسم « قره
ميدان » أى الميدان الأسود باللغة التركية !

وخطر لى - وأنا أخطو الخطوة الأولى فى أرض السجن
- قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :
دخولى باليقين بلا امتراء وكل الشك فى أمر الخروج
فهو تقرير فلسفى صحيح للواقع ! ...

أما الدخول فيها هو ذا يقين لاشك فيه ، وأما الشك كل
الشك فهو فى أمر الخروج متى يكون وإلى أين يكون ؟ إلى رجعة
قريبة من السجن واليه ؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم إلى
عالم الأموات ؟

فى تلك اللحظة عاهدت نفسى لئن خرجت إلى عالم الحياة
لتكون زيارتى الأولى إلى عالم الأموات ، أو إلى ساحة الخلد
كما سميتها بعد ذلك - أى ضريح سعد زغلول

ولم تقع منى هذه الرحلة بين الدار والسجن موقع المفاجأة ،
لأننى كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولو على سبيل الحجز الذى

ينتهي بافراج سريع ، واسكنى كنت لا أرى فرقاً بين أيام أو أسابيع
أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها في الحبس بحكم القضاء ،
لأننى كنت أقدر أن حبس التحقيق - وإن قصر - كاف لأن
يصيبني بأكبر الضرر الذى يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر
العله التى لا تزول

وعلى توقعى الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علىّ بما
يؤكد ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبا اليقين فى هذا
الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، وقد لقينى مرة
فاستوقفنى وقال لى : « حذار يا أستاذ ! » فقلت له باسماء : « لا يغنى
الحذر من القدر ! » قال لى : « إني أروى لك ما أعلم
لا ما أظن : إن مقالاتك تراجع فى بعض الدوائر مراجعة
خاصة ، وإنهم ينتظرون يوماً معيناً ربما كتبت فيه ما يساعد
على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك إلى المحاكمة بما استجمعوا
من أدلة قديمة وحديثة ! »

وكان فى نيتى أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد
مجلس النواب لتمثيل مصر فى مؤتمر المجالس النيابية الذى
عقد تلك السنة فى العاصمة الانجليزية ، وقد استخرجت جواز
السفر السياسى ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوروبية

التي كنت أنوى زيارتها ، ولم يبق إلّا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللاحاق باخواننا الذين سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية ، ثم بدا لي أنى إذا سافرت فقد أمهد يدي وسيلة لنفسي فى أوربا سنوات بلا عمل ولا قدرة على البقاء فى ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منع عودتى أسهل على الوزارة من محادثة قد تنتهى بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها ... فعدلت عن السفر فى اللحظة الأخيرة ، وقلت إن السجن أحب من النفى الذى لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا الحياة !

وفى اليوم الثانى عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنا وحدى بالمنزل ، لأن أخى كان معتقلا فى قضية « البطلة » المشهورة متهما بالتآمر على حياة رئيس الوزارة ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فاذا ضابط فى رتبة « اليوزباشى » على ما أذكر يبادرنى بالسؤال :
— هل حضرتك فلان ؟

— قلت نعم

فمد إلى ورقة من دفتر فى يده على هيئة ذكرتى الكونت نيمور وهو يلقى القفاز فى محضر لويس الحادى عشر
قلت : « تفضل أولا فاجلس »

فتردد في الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة
وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومي للحضور
إلى مكتبه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، ووقعت على
الدفتـر - كما طلب الضابط - بأنتى تسلمت الورقة . وأخذت في
إعداد الكتب التي سأقرأها في السجن ، والأدوية التي أتعاطاها ،
والملابس البيتية التي أحتاج إليها هناك . وزدت فأعددت الأغطية
الصوفية التي تلزمني للفراش والغطاء . لأنني كنت حتى تلك
الساعة أجهل « تقاليد السجون » وأظن أن الأغطية الخاصة
مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق
الحاكمية . ثم حضر الطاهي فأرثته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه
سيحضرها لي في السجن غداً عند اللزوم

فظهر لي أنه لم يفهم . . . وأنه ينوي أن يقصد بها سجن
الأجانب الذي كان أخي معتقلاً فيه

فقلت له : « بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه
غداً بدار النيابة !! » ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه
جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ « أحمد »
أنه ليس باليسير !

وذهبت في الموعد المحدود الى دار النيابة . واستغرق

التحقيق ساعات . ثم قال لى حضرة المحقق : « إننى آسف لأننا
سنضطر الى ابقائك عندنا قليلا يا استاذ ! » وبدأ حضرات
المحاميين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى « الحديقة
الصحية » الواجبة فى هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذى
يوافقنى أثناء الحبس « الاحتياطى » أكثر من سواه

وكان الاساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا
سجون القاهرة . التى تردد عليها فى سنوات الثورة السياسية معظم
المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن إلى
خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصيح السديد للمتهمين والموكلين ...
واستحسنوا أن يكون الحبس فى « سجن مصر » لأن الجو فيه
أوفق لى من سجن الاستئناف

وقد كان

فذهبت مع الضابط والجند فى سيارة خاصة الى « قره
ميدان » وتخطيت الباب فاذا هدوء غير مألوف لأن الوقت
كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بى الضابط نحو حجرة
الكتاب لتسليم ما عندى من الودائع وكتابة الأوراق التى
لا بد منها لكل مسجون جديد . وماهى إلا لحظة حتى توافد
الموظفون وكثروا دخول السجناء ينظرون الى القادم الذى سرى

بينهم نبأ قدومه . وأخذ كاتب هناك مرح ثرثرة يداعبهم واحداً
بعد واحد كلما مروا به وتضمنوا سؤاله عما يضره لهم يريد
اليوم . فيقول لأحدهم : « اطمئن ... فقد عينوك مديراً لمصلحة
السجون ؛ .. » ثم يحجج ببصره كمن يستغرب سكوته . ويقول
له : « الا تصدق ؟ آه يا ابن الحلال . معذور . فانك في السجن
ولست في بیمارستان .. »

أو يقول لغيره : « تعال هنا ... قرب اذنك ! ! قرب
أيضاً » ... ثم يناديه بصوت يسمعه كل من في المكان :
« افرح ... نقلوك الى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد ! »
وهكذا في أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت في ذهني موقف
هملت وحفارى القبور ... اذ يغنون وهم في دمار الموت !!

الليلة الأولى في السجن

من جملات فی تاریخ اسلام علیها

لم يكن مكتب الموظفين إلا بمثابة « الأعراف » التي تفصل بين نعيم الحرية وجحيم الاعتقال . ولكنها « أعراف » تنقل من النعيم إلى الجحيم كما تنقل من الجحيم إلى النعيم . وقد كانت في اليوم الذي سجلت فيه اسمي بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للإفراج كما يسمونه في لغة السجون !

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر في هذه المرة لا مع ضابط الشرطة الذي انتهى مقامه عند الباب فاتجه الضابط إلى عنبر « ب » وفتح الباب الحديدى ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظرًا عجيباً لا تألفه العين : أناساً بملابسهم العادية جالسين القرفصاء في صمت لا يلتفت أحدهم يمنة ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الأرجل والأيدي كما تمشي الدواب يزحفون زحفاً ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يحميونه بصدى — لا بكلام — يقولون فيه : « هيه هيه » أما المغنى فالذى أذكره من أنشودته الآن عبارة واحدة : « رايحه له فين ! ده عليه سنتين ! »

فقلت فال جميل وايم والله ! وللفأل شأن كبير في « نفسيات »

المسجونين كما سيري القراء في بعض هذه الذكريات

وكان لا بد لي من « فرجيل » يصاحبني كما صاحب الشاعر
الايطالي « دانتي » في طبقات الجحيم ليدله على أنواع العذاب
و درجات المعذنين ... فمن هؤلاء الجالسون القرفصاء؟ ومن هؤلاء
المكبون على أربع؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوبات؟
وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم بين
المعتم والمطربش ولا بس « الطاقية » ... ولا يلبسون كأهل
السيجون؟

على أنني لم ألبث طويلاً حتى عثرت على الدليل الذي
ينوب في جحيمنا عن فرجيل !

فقد كان على يسار الحجرة التي خصصت لي حجرة للصحفي
الظريف علي أفندي شاهين رحمه الله . وكان محبوساً رهن المحاكمة في
قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم اسماعيل
صدقي باشا كبير الوزراء في تلك الأيام . وكان واقفاً عند باب
حجرته ينتظرني بعد أن سبقت البشائر إلى العنبر بقدمي !!
فلقيني مرحباً . وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولاق

« دائرتى الانتخابية » كانوا فى مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحبوتنى ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضباط والسجانين فعادوا جالسين

وعلمت بعد ذلك بهنية ان هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبسون على ذمة التحقيق من آثروا البقاء بملابسهم العادية . وإنهم جلسوا تلك الساعة فى انتظار الخروج « للطابور » الذى هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوسين شوق إلى مواعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الأصيل على شاطئ النيل وطريق الأهرام !

أما المسكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغيرون كل شهر مرة ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الأخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون فى الحجرات

قال دليلى أو « فرجىلى » بعد الشرح المتقدم : « وإن هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبى يوسف عليه السلام »

قلت : « وما ذاك أفادك الله ! »

قال : « لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلى طعامه ويقصر أيامه » فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان

قلت : « نخل إلى أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامه ولم يقل غزر ترابه . . لأن السجعة تقضى بذلك ! »
وما لبثت في السجن نصف ساعة حتى رأيت بعيني حرص الاقدار على إجابة ذلك الدعاء ، فما هو إلا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر إلى طرفه حتى يكون التراب قد سقا على المكان الذي تركوه

وإلى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتامي برعاية المواعيد في تناول الوجبات
فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهي أو نسي إحضاره وفهم غير ما تعبت بالأمس في إفهامه إياه ؟

هنا ظهرت لي قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير إلا بعد أن أسأل السجنان ، وبعد أن يسأل السجنان الضابط ، وبعد أن يسأل الضابط البواب ،

وبعد أن يحيل البواب إلى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضى في ذلك كله وقت غير قصير

ولم يكن الذنب في هذه المرة على ذكاء « الشيخ احمد » كما توهمت لأول وهلة ، فانه قد أحضر الطعام بعد انصرافى من دار النيابة . ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمراً بقبوله وانتظام حضوره ، وحتى يراه الطبيب ويرى الادوية التى معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتى الصحية وما يصلح لى من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش ! !

وفى هذه الاثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التى ينضج بها الاسفلت فى أرض العنبر وسقوفه ، ثم فرغ السجنان وصاحب النوبة الموكل بحجرتى من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذى سيغنينى عن غطاءى فلم أطمئن اليه كثيراً ، ولكنى قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجساً من هذه النافذة المفتوحة على رأسى يندفع منها الهواء طول ليل الخريف ... فما العمل فيها ؟

قال ديللى أو « فرجيلى » على افندى شاهين : « لا عليك من هذه النافذة ! فسترى كيف نعالج خطبها » ، والتفت الى

صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض
الحجرة كما يصنع في حجراته هو ، ففعل صاحب النوبة
تواً ليريني كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين افندي
ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لى : « أحمد الله على أنهم لم
يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف
النافذة هنا ولا أمل فى سدها بحال من الأحوال ، فضلاً عن
الظلام المطبق من الصباح إلى المساء »

قلت : « الحمد لله ! »

وهبط ظلام الليل شيئاً فشيئاً ، وعاد المسجونون قبل ذلك
أفواجاً الى الحجرات ، وتعالى بينهم ضجة كضجة السوق فى
يوم زحام ، ثم توالى اغلاق الأبواب وإدارة المفاتيح فى الأقفال ،
ثم بدأ « التتميم » أو المراجعة حجرة حجرة :
كم ياولد ؟ عشرة !

كم ياولد ؟ أربعة . . . وهكذا إلى نهاية الدور ، وفى كل
عنبر أربعة أدوار ، ولن يبرح السجن دوره حتى يستوثق من
مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب فى سجله المعلق عند الباب
وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن
يسمع إلا أسماء تتقاذف بها أفواه رجال ونساء ، وصرخات
وأهازيج وشتائم هى عندهم فى منزلة التحيات المباركات ! ثم

سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ،
وشرع اثنان في قافية من القوافي المعروفة في محافل الأعراس
والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحفي الطارىء على
السجن في تلك الليلة فجعلوا للصحافة قسما من هذه المساجلات
المحفوطة :

— الأولاد تنادى وراك وتقول

— ايش معنى

— المؤيد ! المؤيد ... وهو يعنى « المقيد »

— فوق راسك يامعلم على

— ايش معنى

— المقطم !

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع

في حضن جبل المقطم

— الرغبة في سقف بيتكم

— ايش معنى

— كوكب !

— تطلع من هنا تقابلك في البيت

— ايش معنى

— الحماره !

وقس على ذلك ما يقال ، وما يسمع كرهاً ولا يقال
أما أنا فقد أظلمت الحجرة عندى ظلامين ، لأن النافذة
المغلقة حجبت كل ضياء يتسلسل إلى الحجرات من فناء السجن
المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا
سلة الطعام في ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الأصوات تخفت
وتخفت حتى انقطعت أو كادت في نحو الساعة التاسعة كما أنبأتنى
الساعة العربية التي تدق في مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع
إلا وقع أقدام الحراس على البلاط ، وإلا صيحاتهم كل نصف
ساعة يطيلونها ويتنافسون في إطالتها . فذكرتنى مبيت ليلة على
حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب

التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فقد حضر في هذا المجلس

الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

تقدمت في علم السجن بعد يوم واحد خطوات سريعات ، وعلمت
مركز الدور الذي أنا فيه — وهو الدور الخامس — بين أدوار
السجن عامة ، وعلمت ماله من الشرف والوجاهة المومومة في تلك
المدينة الصغيرة التي يسكنها نحو أربعة آلاف ، فانه هو محور حركة
التهريب والحيل والمناورات

وليس التهريب في السجن بالشئ الهين ولا بالمطلب
اليسير ، لأنه هو الدفاع الوحيد الذي ينتقم به المسجونون من
الأسوار والقيود والحراس ، وهو فسحة الحرية الباقية لمن
فقدوا الحرية . فعليه وحده تنصب جميع الجهود والحيل
والخباياث . وله وحده تجارة واسعة النطاق تجري على معاملات
خاصة ولغة خاصة ومواصلات خاصة ، لا يكفي للعلم بها يوم
واحد . ولكن لا يمضى يوم واحد على السجين حتى يأخذ في
العلم ببعضها ، ثم لا يزال في الافتتان والمزيد ماشاء الله أن يهبه
من سعة الفهم والنبوغ !

والتبغ والحلوى هما عماد المهربات جميعاً في السجن ، وهما
السلعة التي يغالى بأثمانها من يطلبونها هناك حتى يبلغ ثمن اللبيفة
الواحدة خمسة قروش . وثمان عود الثقاب قرشا أو أكثر ،
وثمان القطعة « من الخلاوة الطحينية » كثمان اللبيفة من التبغ ،
وربما زاد عليها في بعض الأحيان .

ولكل سلعة من السلع المهربة ، بل لكل شيء من الأشياء
التي يتصل بها السجناء رمز من الرموز ، يعرفه كل من في
السجن ولكنهم لا يزالون مصطلحين عليه بعد انكشاف
سره وافتضاح صفره . فالحارس يعلم أن « الزمارة » هي الليفة
وأن « العين » هي النار من ثقب أو غير ثقب ، وأن
« العربة » هي الحارس نفسه . وأن السجن الذي يقول لزميله :
« حاسب العربة فاية » إنما يعنى أن الحارس في الطريق ...
ولكن السجناء مع هذا قد ألفوا الكناية والتخفي والزوغان
ففسدوا الكلمات الواضحة وصمدوا على هذه المصطلحات والرموز
والدور الخامس فيه سجناء المحاكم المختلطة أو « الحمايات »
كما يسمونهم هناك . وهم يميزون بطعام غير طعام السجن يشتمل
على الخضر واللحم والفاكهة والحلوى كل يوم ، ولهم في الإفطار
كوب كبير من الشاي ويصنجان . وفي المساء جبن أو ماشابه
من طعام محرم على سائر المسجونين

وفي الدور الخامس قسم آخر من سكان السجن المجدودين
في نظر الزملاء الآخرين ، وهو قسم المحبوسين على ذمة التحقيق
الذين يسمح لهم « النظام » بالطعام واللباس من المنازل ، فيصل
إليهم كل يوم دجاج ولحوم وخضرا مطبوخة وفاكهة وحلوى

وألوان من « الثمرات » المحرمة المشتهة في ذلك الجحيم
وهؤلاء يشتاقون « التبغ » إن كانوا من المدخنين فيجدون
في « العنبر » من يشتاقون الحلوى واللحوم ويملكون اللقائف
أو « الزمامير » للبيع والمقايضة ، فتتعقد الصفقات وتظهر
البراعة والافتنان في التوصل والتسليم
على أن البيع لا يجري كله بالمقايضة ولا غنى فيه عن
« النقد » في كثير من الأحيان ، أما حمل النقد فممنوع في نظام
السجن ولكن هل يمنع بلع النقد واحتواؤه في الأجواف ؟
هيات ! ومن هنا كانت العملة المختارة في السجن هي قطعة
القرشين الفضية وقطعة « نصف الجنيه » الذهبية ، وما عدا
ذلك من القطع فهو شذوذ يتوقف عليه شذوذ المعدات والأعما ،
ومنها ما تصل طاقته في الشذوذ إلى ربع ريال ، وقد تزيد على
ما يقال !

ولم تمض على ليلة في السجن حتى عرف الحبش المتربصون
أن هناك فرصة للاستغلال لا ينبغي أن تضيع ، فاستغلوا جهلى
بكل ما استطاعوا من وسيلة وحيلة ، وكانوا موفقين كل التوفيق
جاءني خادم الحجرة في الصباح الأول بعد الإفطار وأنا
لا أعلم بطبيعة الحال شيئاً عن المحظورات والمباحات وأولها

إعطاء الطعام والفاكهة لخدام الحجرات ، فأعطيته كل ما بقى من الموز والفاكهة فى السلة ، ففرح بها وتهلل وجهه وأسرع نخباً بعضها تحت لبدته ولف بعضها فى سرواله ، وتسلسل من الحجرة إلى حيث لا أعلم . فأدهشنى أنه لم يأكل ما أعطيت وظننت أنه يخفيه عن أصحابه حتى ينفرد بأكله فى ناحية ، ولكنى عرفت بعد ذلك أنه باع معظمه بزمارة ! وقنع منه بأكل القليل وجاءنى بعد ذلك فسألنى :

— هل تعبت كثيراً من البق والبراغيث ؟
قلت :

— كلا ! لم أشعر لها بوجود
قال :

— لكن هذه « الملاعين » ستظهر قريباً عند ما تشم
« نفس الناس » وتزعجك كثيراً ومن العجيب أنها لم تظهر
أمس والحجرة مهجورة والأغطية مخزونة ، فلا بد من تطهير
السريـر وحدائد النافذة والباب للقضاء عليها . . .
وظفّق الخبيث يهول لى فى فتك هذه الحشرات والأعبيها
فى الاختفاء والظهور كأنها تحاور السجناء وتلاعبهم لعبـة
« الاستخفا » عن عمد وتديبر

وخشيت أن يكون ما قال حقاً ، لأن المزعجات كلها مسطرة
على السجناء في اليقظة والرقاد
فقلت :

— وكيف نقضى عليها ونستريح منها ؟

قال :

— بالنار . . اطلب سعادتك موقد الغاز من السجن
وهو لا يضمن به على مثلك ، وقل له إنك تريده لتطهير الحجرة
من البق والبراغيث

فشكرت له إخلاصه ، وانتظرت حتى جاءني السجناء فطلبت
منه « الموقد » وذكرت له الغرض منه ، فلم يضمن به كما قال
الرجل بيد أنى علمت بعد لحظات قليلة حقيقة ذلك
الاخلاص الذي شكرت صاحبنا عليه !

فما هو إلا أن تسلم الموقد مشعلا حتى أسرع قبل كل شيء
فأشعل منه لفة من خيوط الصوف ونظر إلى الدور الأعلى
— وهو الدور السادس — فاذا بلبدة تسقط على مقربة منه
كأنها سقطت عفواً بغير طلب ، وإذا به يدس فيها اللفة المشعلة
ويطويها طياً محكما ويقذف بها حيث سقطت ، وهو يقول في
صوت بين الهمس والنداء : « خذ التليفون ؟ »

والتليفون كما علمت بعد ذلك هو الخيط المهرب على هذا
المنوال لاشعال الزمامير !

قلت : « يا شيطان ؟ أهذا هو البق الذى تريد إحراقه »
فحاول أن يتهدى فى السكتان والزوغان . ولكنه ضحك على
الرغم منه وأفصح لى بسر هذه « التهريية » التى كانوا لا يظفرون
بها إلا فى الفلتات . وقال لى إنهم كثيرا ما يشعلون خيط الصوف
على طريقة قدح الزناد ، ثم يقذفون به فى الحجرة المجاورة
فيتلقاه أحد السجناء على ذراعه الممدودة خارج « شعاع » الباب
ثم يلقي به الى جاره حتى يدور فى الدور كله . ولذلك سموا
هذا الخيط بالتليفون !

وماذا يصنع المدخن الذى يود التدخين لا محالة ومعدته خاوية
من « ذات القرشين » أو من الزرار كما يسمون تلك القطعة فى
لغة الاصطلاح ؟

أترأه يقلع عن تلك العادة ؟ كلا ذلك آخر ما يفكر فيه ، بل
ذلك حديث لا يفكر فيه آخرأولا ولا أولا فيما يظهر . وإنما يعتمد
على الثقة ومعاملات القرض والتسليف حتى يفرجها الله
وأنها لمعاملات معترف بها تسرى بين السجناء سرياتها بين

الطلاق . فـ كل سجين « حسابه الجارى » الذى يليق بسمعته المالية وكفائته « السجنية » . وهى على نقيض الكفاءة التى توجب الثقة فى معاملات المصارف والمتاجر الخارجية . لأن أسوأ الناس سلوكاً وأطولهم إقامة فى السجن هو أحقهم بزيادة الاعتماد وحسن السمعة . وأما البرىء أو المحكوم عليه فى أمر يسير فذلك فى حكم المفلس المعدم الذى لا يوثق به فى التسليف من هنا إلى هناك !

ولا أزال أذكر صرخة الفزع التى سمعتها من أحد تجار التبغ المشهورين حين أبلغوه أن مدينه « فلاناً » قد برىء فى محكمة الاستئناف بعد أن كان ميوساً من برأته وكان هو أول اليائسين المتفائلين ببقائه فقد صاح التاجر فيمن أبلغوه شامتين مستهزئين : « ويحكم ماذا تقولون ؟ هل برأوه النذل الوضيع ؟ » ثم عاد فاستسلم وأناب وقل لمن حوله وكأنه يحدث نفسه : « ولكن الحق على أنا المغفل الذى أثق بمثل هذا الكاركى الحقيقير ! » وكان الأولى به أن يقول : « هذا البرىء الحقير » بدلا من كلمة الكاركى التى هى عندهم اصطلاح على من دخل السجن محكوماً عليه لأول مرة . ولعلهم أخذوها من كلمة « الكاكي » الذى يشبه لونه لون العلامة الموضوعة على لبدة هذه الفئة من فئات المسجونين

وربما تبادر الى الذهن أن ديون السجين عرضة للغدر
والاكتضام إذ كان صاحبها لا يجسر على المطالبة بها خشية العقاب
إذا هو أقر على نفسه بالتهريب والاتجار بالمحظورات ، ولكن
الحقيقة أن ديون السجين كديون الشرف عند جماعة المقامرين
هى أحق الديون بالضياع وهى مع ذلك أبعد الديون
عن الضياع . ولا شك أن الدائن يستमित فى رد حقه على قدر
حاجته إلى الاستماتة والمجازفة . وهو يحتاج إلى الاستماتة والمجازفة
كلما قل اعتماده على المطالبة المشروعة والأصول المتفق عليها .
فيذهب فى طلب الدين المهرب إلى أقصى حدود العنف والارهاب
ويلقى فى روع غريمه أن رد المال أهون من الإصابة التى لا مفر
منها إذا هو تذرع بالغدر والمحال . وربما استنكر « الرأى العام »
بين هؤلاء اللصوص أن يأكل المدين مال الدائن فى غيابة السجون
وهم جميعا لا يستنكرون الخطف والسطو والاختلاس فى فضاء الله
الرحيب . لأنهم يحتاجون فى السجن الى تجارة المهربات ويعلمون ان
انها تجارة قوامها الثقة والسداد ، وان كان هذا لا يمنعهم ان
يعجبوا « بالشاطر » الناجح الذى يستدين ثم يتمكن من الزوغان !
ومن هؤلاء الأشقياء من يعجز عن معاملة التسليف فيهم
على التزييف وهو يتوقع ما وراءه من الخطر والعقوبة القاصمة

رأيت من هؤلاء اثنين جاءهما أحد السجنانيين الى مكتب
السجان الأول في انتظار عرضهما على حضرة المأمور . وكنت
أجلس أثناء الرياضة في فناء السجن بين المكتبين المتقابلين
فبسط لى السجان المصاحب لها يده وقال : « انظر ! هذا
من تزيف هؤلاء المجرمين » وعد أمامي ثمانى عشرة قطعة من
ذات القرشين صنعها ذاك السجنان فى المعمل واتقنا صنعها
جد الاتقان . مع السرعة وقلة الأدوات وشدة الحذر من الرقباء ،
فلا تختلف القطعة الصحيحة إلا بالرنين وهو محك مأمون فى
داخل السجن . . . ومن ذا الذى « ين » الزرار فى لحظة
التهرب ؟ فالشياطين يعلمون أن صاحب البضاعة سرعان
ما يتناول القطعة بيده حتى يقذف بها إلى معدته . . . ثم يختلط
الصحيح بالزائف فى ذلك الكيس الحى وتختفى الشبهة باختفاء
القطعة بين أحشاء التاجر المخدوع

قال أحدهما لصاحبه : « فيها خمس سنوات يا فلان »
فاضطرب صاحبه . وقال : « قسم ونصيب . . . وكل هذا
من أجل نفسي لا طالعا ولا نزلا »

ثم التفت نحوى كالمستغيث سائلا :
أصحيح أن الحكاية فيها خمس سنوات ؟
قلت :

— لا أظن

فنظر إلى الأول نظرة يتنازعها ادعاء العلم بأحوال السجون
ولهفة الخلاص . وقال لي كأنه يتحدى ويستزيد من الاطمئنان
في وقت واحد :

— وكيف هذا وقت رأيت بعيني جماعة عوقبوا بالسجن
خمس سنوات لأنهم زيفوا النقود ؟

فطاب لي أن أداعب مهارة هذين الشيطانين وأخذت أشرح
لهما ما أعتقد من الفارق بين التزييف في الخارج والتزييف في
داخل السجن ، وقلت لهما إن المزيف في الخارج يختلس حق
الحكومة وحق الناس ، ولكن المزيف هنا يختلس ما هو
مختلس بطبيعته ومستحق للصادرة عند ضبطه ، وليس على هذا
عقوبة أكثر من عشرين أو ثلاثين جلدة ، وأيام أو أسابيع من
سجن الانفراد والخبز القفار
قال :

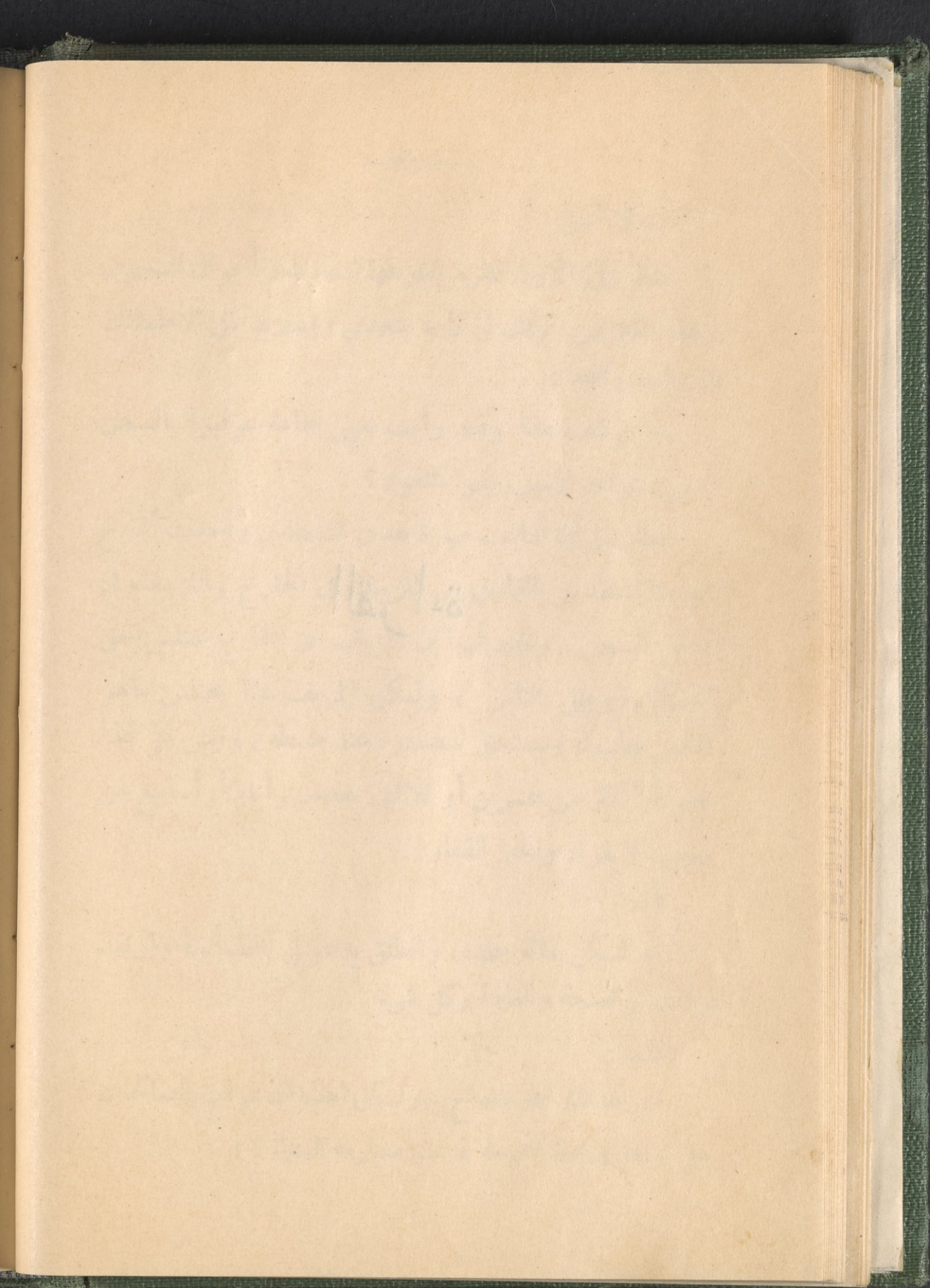
— لتكن مائة جلدة ، وانطلق يدعوني بالطمأنينة وارتقاء
المراتب والصحة والعافية وكل شيء

قلت :

— هداك الله يا صاح . ولكن هذه الدعوات الصالحات

هل تراها « عملة صحيحة » عند صيارفة السماء ؟ !

القراءة



يسمح النظام في « قره ميدان » بالقراءة للحجوزين على
ذمة التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط ، وتنحصر القراءة
المسموح بها في الكتب الدينية والعلمية والأدبية التي « لا تخل
بالنظام » ماعدا الروايات وكتب التسلية ، ويرجع الأمر في
التفريق بين ما هو جائز من المقروءات وما هو محظور — إلى رأى
الموظف « الكتانى » الذى يتفق وجوده ساعة وصول
الكتاب ، لأن الموظفين العسكريين يترفعون عن الخوض في
هذه المسائل « الملكية » ولا يشعرون بغضاضة على أنفسهم
من القائها على كاهل حملة الأقلام ، ولكن ما الحكم في اللغات
التي لا يعرفها الموظف الحاضر ؟ وما الحكم في الروايات التي هي
من صميم الأدب ؟ وما الحكم في الكتب التي لا يلوح عليها أنها
روايات إلا لمن قرأها وأحاط بتراجم أصحابها ؟ وما الحكم فيما
يخالف النظام من التصانيف اذا كان المراقب الفاضل لم يسمع
قط باسم كارل ماركس ولا كروبتكين ، ولا مانع عنده من
أجازة كل تأليف لاخوان هذا الطراز ؟

الحكم في ذلك كله للمصادفة والمزاج ، فكثيراً ما يتوغل في
السجن من أجل هذا كتاب يقشعر له بدن النظام الاجتماعي
وكل نظام في الوجود ، وكثيراً ما ينتظر الكتاب الاذن بعبور
الجدران أياماً وأسابيع حتى يرسل الى الادارة العامة ويعثر

هناك على من يعرف الألمانية أو الأوردية أو الأرمنية وماشاهما
إذا كان مكتوباً باحدى هذه اللغات

وقد وقع اختياري عند ما وصل إلى اعلان دعوة
التحقيق على كتابين فى التاريخ والأدب ، وهما الطبعة الجديدة
من مختصر تاريخ العالم للمصلح الانجليزى « ه . ج . ولز » ، وسيرة
بيرون للكاتب الفرنسى « اندريه موروا » مترجمة الى الانجليزية ،
فأفردتهما جانباً ووضعتهما على الكسب الأخرى التى
سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين

ولم يكن اختياراً فى الحقيقة ذلك الذى هدانى الى اختصاص
تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة فى أيام السجن الأولى ،
ولكن الكتابين كانا قد وصلا إلى فى البريد الأخير فوجدت
الفرصة سانحة للفراغ منهما فى هذه العزلة المقصورة !

على أننى لو تعمدت الاختيار المناسب « لمقتضى الحال »
كما يقولون لما اخترت غير كتابين من هذا الباب وعلى هذه
الوتيرة ، فليس أحب إلى الانسان من أن يعوض حركة الجسم
إذا فقد هاجركة الخيال ، وليس أقرب إلى المعقول من أن
يلتمس فى عالم القراءة ما يعز عليه فى عالم الواقع ، وأى قراءة
أليق بالسجين على هذا الاعتبار من تاريخ يصاحب به حركة

الانسانية بأسرها من بداية نشأتها ومن قبل نشأتها إلى يومها
الحاضر ؟ أو من سيرة رجل قضى حياته كلها جامحاً بين رحلات
الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوى والمغامرة ؟

فقد أحسن القدر الاختيار لي فيما أرى !... ومن قبل ذلك بأعوام
أذكر أنني كنت أتقى ما أقرأ وأنا مريض يائس من الشفاء ،
فكانت يدي تتجه إلى نوعين من الكتب بينهما مسافة بعيدة
من الاختلاف في الموضوع والوجهة ، وأعني بهما الكتب
التي تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية والكتب التي
فيها بحث عما وراء الطبيعة واستكناه الحقائق الأرواح وعالم
الغيب ، وما أشد الاختلاف بين الموضوعين ؟ وما أبعد
المسافة بين النوعين ؟ ولكن الصلة التي تجمع بينهما أقرب الجمع
بعد ذلك هي « التعويض » النفسى الذى يشتركان فيه ، فكلاهما
كفيل بتعويض المريض الذى يحس من نفسه انه سيفقد الحياة ،
وانما يعوضانه فى عالم الخيال والتفكير . لأن حياته الواقعية تريحه
مقدار الحاجة إلى عالم الحس كما تريحه مقدار الحاجة إلى عالم الروح

على أننى لم ألبث أن عرفت أن للكتاب فى السجن فائدة
غير فائدة القراءة ، وربما كانت فائدته الأخرى هي المقصودة

فى كثير من الأحيان عند كثير من المسجونين ، ولا سيما
المصاحف وكتب الدين على اختلاف الأديان
أما هذه الفائدة الأخرى فهى الاستخارة .. وهى أن
يفتح القارئ الكتاب على الصفحة اليمنى ثم يعد سبعة أسطر
ويقرأ ما يصادفه فى السطر السابع ، فإذا هو المصير الذى ينتظره
و « القرعة » التى تصيبه بغير تدبير ولا مجاملة ولا مداراة .
فإذا كان الكتاب مصحفاً أو سفرأ دينياً كائناً ما كان فذاك اذن
أشبه بالوحى السماوى وصوت النذير من عند الله

ولا أظن أحداً من القراء لم يسمع قائلاً يقول فى دهشة
وغضب : « أتريد أن أغالط نفسى ؟ ... » كأن مغالطة النفس
أبعد الأشياء ! وكان الانسان لا يغالطه إلا الآخرون ولا
يغالط هو إلا الآخرين

ولكن ساعة من ساعات الضيق الشديد أو الحزن الشديد
أو اللهفة الشديدة لترين الانسان — كل انسان — أن المغالطة
الكبرى إنما تكون من جانب النفس لا من جانب الخادعين
بين الأصدقاء والأعداء ، فهو يصدق الرجاء أو العزاء لأنه يحتاج
إلى تصديقه ، لأنه يقيم البرهان عليه ويتبين الوقائع التى ترجحه
وتقويه ، والمقياس الوحيد لصدق العزاء فى ساعة الضيق انه

ضرورى لازم لا أنه صحيح معزز بالبرهان ، ولهذا يغتبط
المسجونون بالبشارة التى تأتى من الاستخارة كأنها خبر وثيق
لا كذب فيه ، بل يغتبطون بها لأنها خبر لا يضير فيه الكذب
ما دام يسر ، ولا يفتقر إلى تمحيص الغد مادام مقبولا فى حينه
وقد كان بعض المسجونين الذين يلقوننى عند الحلاق ويروتنى
فى غفلة من الحراس يحدثوننى ببشائر « الاستخارة » والأحلام
كأنهم يتحدثون « بالأسانيد » والبيئات ، فاشكر لهم مودتهم
ولا أحب ان أززع فيهم ركناً من أركان العزاء ، وما أوهى
أركان العزاء جميعاً عند بنى الانسان !

كان باب الحجرة عندى مفتوحاً للتنظيف فى صباح يوم ،
فجاءنى زميلى ودليلى وجارى السيد على شاهين يحمل مصحفه
ويعلمنى هذه الفائدة الجديدة من فوائد الكتب بين جدران
السجون ، ومن المصادفات المدهشة أنه أخذ فى الاستخارة
لنفسه وانفتحت له إحدى الصفحات اليمنى من سورة يوسف
فقرأ فى السطر السابع : « سواء إلا أن يسجن أو عذاب
اليم . قال هى راودتنى »

فانتفض صاحبنا كأنما سمع الحكم بالسجن يتلى عليه ! وحق
له أن ينتفض لأن المصادفة فى الحقيقة كانت من المدهشات التى

قلها تتفق في هذه الاستخارات ، إذ ليس في المصحف كله آية تناسب استخارة السجين الذي سيحكم عليه كما تناسبها هذه الآية . ولكن ما أعمق معين المغالطة في نفس الانسان كلما احتاج إلى الرجاء والعزاء ! . فان صاحبنا لم يقف عند السطر السابع بل زعم أن أصول الاستخارة تقضى بمتابعة المعنى إلى تمامه ، وجعل يقرأ ويقرأ حتى وصل في ختام الصفحة التالية إلى الآية التي تقول : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم »

وكنت أقلب في كتاب « تاريخ العالم » فقال لي صاحبي :
« ألا تستخير عندك ؟ »

قلت : « وهل تصلح الكتب الافرنجية للاستخارة ؟ »

قال : « جرب ! »

ولا أظن شيئاً يبعث الأسي على تاريخ بني الانسان المساكين كما تبعثه الاستخارة في كتاب تاريخ عام . فما أذكر أننا وقفنا على سطر إلا وكان فيه عراق أو نكبة أو معنى محزن إن كان فيه معنى على الإطلاق ، وفي إحدى هذه الاستخارات ظهرت لنا آية قرآنية مترجمة علمت موضعها بقلم رصاص كان مع السيد

على شاهين ، ولم أكن أنا أحمل قلما ولا رضيت أن يحمل إلى شيء.
من المهربات ، فاذا السطر السابع منها هكذا :

Grieve at what had escaped you, nor at what befell you; and Allah is aware of what you do)

وتمام هذه الآية من القرآن في سورة آل عمران : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فاثابكم غمّاً بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم »

وفي اليوم التالي لدخولي السجن أبلغت أن المصلحة ترخص لي في شراء الصحف التي أريدها على حسابي ، فتعبننا جداً في إحضار صحف المساء قبل الغروب واغلاق الحجرات — وهي توزع في ميدان القلعة نحو الساعة الرابعة — لأن البائع الخبيث علم أن هذه النسخ « مضمونة البيع » فالأولى به إذن أن يبدأ ببيع النسخ « غير المضمونة » !! ولم يشأ من أجل هذا أن يحضر إلى السجن وفي ضوء النهار بقية ، وأصر على ذلك مع تنبيهه مرة بعد أخرى ، وان كان هذا لا يمنعه أن يلقاني بالدعاء والابتهاال

كلما خرجت من السجن وكلما عدت اليه في طريق التحقيق
والحكمة !

وربما علم بعض حضرات القراء أنني شرعت في أيام سجنى
أتعلم اللغة الفرنسية ، وهى مصادفة من المصادفات أيضاً لم تكن
تجول في نيتى عند ما دخلت السجن واخترت كتب القراءة التى
تقدمت الاشارة اليها ، وإنما فكرت فى ذلك على أثر تحية وجيزة
لقيتها من رجل ايطالى مهاجر وضعوه فى الحبس ريثما يتثبتون
من « جنسيته » فى الوكالة الايطالية . فقد اقترب منى هذا الرجل
يوماً ورفع قبعته محيياً وهو يقول بالفرنسية : « يا حضرة
النائب . . » ثم شفع ذلك بكلام كل ما فهمته منه يومئذ أنه قرأ
أخبار قضيتى وأنه يسره أن يرانى ويبلغنى تحياته . فحاولت أن
أفهمه جوابى بالانجليزية فلم يفهم إلا قليلاً لا يزيد على ما فهمت
منه ! فسألت نفسى : وما بالى لا أتعلم الفرنسية فى هذه الفرصة ؟
أمامى الآن نحو خمسة اشهر وهى مدة كافية للامام بالمبادئ ،
ولم يكن وقت التحقيق صالحاً للشروع فى هذا البرنامج لأنه
وقت غير محدود . فلنبداً الآن فقد عرفنا بعد صدور الحكم
بالحبس البسيط مدى ذلك الوقت لمحدود

وأنت أيها القارىء — وقاك الله — لا تعلم كما علمت أنا
 فى السجن أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول
 « قلم » إلى حجرة سجين باذن من مصلحة السجن ، فان
 الترخيص للسجين بحمل القلم يقتضيه كما قيل لى ان يكتب عريضة
 لادارة السجن وأن ترفع هذه العريضة إلى مدير المصلحة وأن
 ترفع بعد ذلك إلى كل من وزير الداخلية ووزير الحفانية ،
 وهناك يصدر الأمر بالرفض أو القبول اذا شملته رعاية خاصة ،
 والأرجح أن يرفض لغير سبب إلا ان الرفض مباح للرئيس
 وانه فى معظم الأحيان شرط من شروط الرئاسة
 ولم كل هذا العناء ؟

نعم إن القلم ضرورى لتعليم الأسطر كما تعودت فى دراساتى
 ومطالعاتى ، ثم تدوين الكلمات التى تراجع وتحفظ ، ولكنى
 استعصت منه بالظفر أحزبه العلامة فى الهامش وفى خلال
 السطور ، وبثنى الصفحات فى مواضع المراجعة والاعادة .
 واستغنيت عن كتابة العرائض التى يقول فيها جبرائيل لميكائيل
 وميكائيل لاسرافيل واسرافيل لعزرائيل ، ثم لا تنتهى بعد ذلك
 إلى كثير ولا قليل

ومن طرائف المقترحات التى سمعتها وأنا أبدأ دروس
 الفرنسية الأولى أن أدع هذه اللغة وأعد نفسى — بدرس الفقه
 والشريعة والتصوف — لأن أكون إماماً واعظاً فى الأقطار

الاسلامية ؛ وأن أفطن للحكمة الالهية التي قيضت لى محنة
السجن كما فطن لها صاحب الاقتراح الملمهم بظهر الغيب
وجعل صاحبي — أعني صاحب الاقتراح — يسأل ثم
يجيب نفسه

— هل تستحق أنت بلاء السجن ؟ لا ولا ريب ! ..

إذن لا يظلم ربك أحداً ! وما أراد ربك بسجنك إلا نفعك
ونفع المسلمين بك ، وأن لا تكون غاية سعيك خدمة الوطنية
المصرية دون الجامعة الاسلامية . فدع الفرنسية واقراً فى
الآشهر الباقية كتب التفسير وأصول الدين وتجرد لما جردك
له الله ، وثق أنك هنا لأمر عظيم

وهكذا كان يحاورنى من حين الى حين رسول تلك البشارة
المغموطة ، والهداية التى تخلق الهداة على الرغم منهم ! ورسولنا
هذا هو هندى متورع محبوس فى قسم الحمايات لتهمة اختلاس
فى تجارة كبيرة ينكرها أشد الانكار ، ويزعم أن عداوته
للحكومة فى الحركة الهندية هى علة تليفق التهمة عليه ، وكان
لا ينقطع عن كتب التفسير والأحاديث يقرأها بالعربية فيفهمها
بعض الفهم ولكنه يتكلم الانجليزية إذا أراد التبسط فى الحديث
وفارق الرجل السجن وفارق مصر وهو بغصة المحسور على
ذلك الامام الذى هو واثق انه امام منتظر ، وواثق كذلك أنه قد
ضيع بيديه الامامة التى أعده لها القدر ، وما أعجب الجمع بين الثقتين !

المنع والترخيص

مخطوطاتنا

كل شيء في السجن ممنوع حتى يصدر الأمر بإباحته والغاء منعه
 فالأصل في السجن « المنع » لغير سبب وبغير تفسير ، فإذا
 أبيض عمل من الأعمال وأجيز أمر من الأمور ، فذاك الذي يحتاج إلى
 سبب ويحتاج بعد ذلك إلى ترخيص واستئذان

وأن هذه القاعدة وحدها كافية لأن تجعل السجن سجونا
 كثيرة بعضها أضيق وأثقل من بعض . ولكنها مع ذلك رحمة
 سماوية إذا قيست إلى الطريقة التي ينفذونها بها حرفاً وحرفاً ومرة
 مرة ، بغير تصرف ولا قياس ولا مراعاة للنظائر والمناسبات

فإذا أبيض الشيء مرة فأنما يباح في حالة لا تسرى إلى غيرها
 وفي وقت لا يمتد إلى ما بعده ، فلا يمكن أن تتكرر الإباحة ولو
 تكررت الدواعي والمناسبات ، ولا يمكن أن يباح الشيء الذي
 يشبهه تمام المشابهة ويجرى مجراه في وصفه وفخواه ذهاباً مع
 القياس والاستطراد ... كلا ! بل كل شيء مباح بحرفه ووسمه
 ووقته وشخص المقصود به ، فإذا تغير الحرف أو الوسم أو الوقت
 أو الشخص فقد بطلت الإباحة وعاد المنع كما كان !

وبعض الأمثلة غنى عن الاسهاب في هذا الباب
 كان قوام طعامي خارج السجن الفاكهة والخضار الطازج
 ولا سيما في الصباح والمساء ، وقد ميزت من الخضار الجرجير

والخس ، ومن الفاكهة الكمثرى الإيطالية والجوافة ، لأن هذه
الفاكهة تشتمل على خلايا وبذور تساعد الهضم بخشونتها مساعدة
لا تقوم بها الثمار الأخرى

فأما الفاكهة فقد فصلت فيها مصلحة السجون من قديم
عهدنا الأول فصل أنبياء بنى إسرائيل في المباح والمحظور من
الطعام والشراب . فهذا حلال وهذا حرام ، ولا نقض بعد ذلك
ولا إبرام . وليست الكمثرى مما يسمح به ذلك « الحاخام » ...
أما الجوافة فلم يحن أوانها من العام !

واختلف الحال في الخضار فلم يتنزل في أمره تحريم كذلك
التحريم بين آيات الكتاب العظيم ، ولكن كأن الهيكل قد
حجروا على ما أباح الكتاب واسعاً فلبث « المنع » الأصيل في مكانه
القديم لا يتراجع عنه ولا يريم !

كتبت اللجنة الطبية التي تقرر لى أصناف طعامى كل
أسبوعين هذه العبارة فى تذكرتى الصحية : « يصرف له خضار
كالفجل والجرجير . . »

فمضت أيام وأنا لا أرى غير الفجل فى كل غداء ، والفجل ،
وقاك الله ، صنف يحتمله الهضم الضعيف يوماً ثم لا بد له من
أسبوع على الأقل لينساه ويحازف مرة أخرى بالرجوع إليه .

فأما الفجل وحده ولا خضار غيره مطبوخاً أو نيئاً في كل غداء
فذلك بلاء للهضم الضعيف وليس بغذاء أو دواء !
قلت : « فأين الجرجير ؟ »

قالوا : « إن الساعى الذى يذهب فى طلب هذه الأصناف
لا يجده فى السوق ولا يسعه أن ينتظره حتى يعبر به الباعة
فى الطريق »

قلت : « وما باله لا يشتري الخس مثلاً أو الكراث ؟ »
قالوا : « إن اللجنة الطبية لم تسمح بغير الفجل والجرجير ! »
قلت : « بل سمحت بكل خضار لأنها لم تذكر الفجل
والجرجير إلا على سبيل التمثيل »

قالوا : « لا بد من سؤاها والاستئذان منها ، لأنها لو
شاءت لذكرت أسماء الأصناف الأخرى ولم تقصر الإشارة
على هذين الصنفين »

وبديه أن السجن مدرسة كما يقولون ، ولكنه ليس بالمدرسة
التي ألقى فيها درسا فى معنى التمثيل بالكاف أو فى معنى
التخصيص والتعميم ! ..

وسمحت لى اللجنة باللبن فى طعام الافطار فكأنها قد
سمحت لى بكوب فارغ لا شىء فيه ، لأن اللبن الذى يصل إلى
فى الصباح الباكر لا يكون صالحاً للغذاء ، ولا ينبغى أن يصلح
لغير الاهراق قبل ذلك بساعات

وبيان ذلك أن اللبن الذى يجلبه المتعهد إلى مستشفى السجن
إنما « يستلم » فى الساعة العاشرة من كل صباح
والساعة العاشرة موعد حسن لمن يتناولون اللبن فى الغذاء ،
وموعد لا بأس به لمن يتناولونه فى العشاء ، على شريطة أن
يكون مخلوباً فى صباح يومه ولا يكون « بائناً » متخلفاً من
اليوم الذى قبله

فأما فى طعام الافطار فأين هو المستشفى الذى يطعم مرضاه
لبناً مضت عليه أربع وعشرون ساعة فى الصيف أو فى الشتاء ؟
وخطر لو كىل السجن الذى خاطبته فى هذه المسألة عند
مروره بى ساعة الرياضة أن « يتصرف » فيها بعض التصرف
على خلاف القاعدة المرعية هناك ، فامر رئيس الممرضين أن
يضع المقدار اللازم لى من اللبن فى « الثلاثة » من ساعة
وصوله حتى ساعة تقديمه فى صباح اليوم التالى ، عسى أن يمنع
ذلك فسادده وتخثره ويبقيه سائغاً سليماً حتى موعد الافطار

لكن رئيس المرضين ذهب إلى المأمور يستأذنه كما هي
العادة في كل شيء، فانكر المأمور هذا الحل « الهرطقي » لأنه
بدعة عجيبة لم يتنزل بها الوحي في « الناموس » القديم،
ووجب أن يهرق اللبن هدرًا وأن يلغى الافطار عليه حتى تعود
اللجنة الطبية إلى فحص جديد

وليس يخفى أن « النظام » لا يمكن أن يمنع وضع اللبن
في ثلاثة المعمل الملحق بالمستشفى أو في أى مكان يحتويه، ولا
يمكن أن يمنع صيانة اللبن من الفساد بغير كلفة ولا نفقة زائدة
مادام الثلج لا ينقطع عن المعمل في صيف ولا شتاء، بل صيانة
اللبن أنفع للمستشفى وأقل نفقة عليه من شراء لبن جديد لى في
الصباح الباكر قبل حضور الأطباء.

ولكن « الناموس » لم ينص بالحرف والوصف على قنينة
من اللبن توضع في ثلاثة لأجل سجين يسمى عباس العقاد فهو
قد نص إذن على المنع والتحريم !!

على أن الأخطر والأغرب في باب الضحك والفكاهة، لولا
مافيه من مساس بالحياة، هو قصة انتقال إلى المستشفى أو انتقال
المستشفى إلى، ثم ما كان بعد ذلك من فصل حكيم في هذه المشكلة
العضال التي ليس لها إلا ذكاء سليمان بن داود

وسيعجب القارىء من «عنوان» هذه القصة كما أسلفته لأنه
لن يتخيل أن هناك مشكلة تقوم بين مريض ومستشفى لينتقل
المريض إلى المستشفى أو ينتقل المستشفى إلى المريض

ولكنه إذا عرف القصة على جليتها لم يستطع أن يتخذ لها
عنواناً أصدق من ذلك العنوان ، فهي في الواقع خلاف بيني
وبين المستشفى قد انتهت — بحكمة سليمانية — على أن ينتقل هو
إلى بدلا من انتقالى أنا إليه

وجلية القصة أن الأطباء قرروا بعد أيام من دخولى السجن
وجوب وضعى فى مستشفى ومعاملتى فى اختيار الطعام والفرش
وأوقات الرياضة معاملة المرضى

ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت إلى المستشفى
كما يقضى العقل و « النظام » ؟

كلا ! وإنما الذى حدث أنهم اعتبروا الحجرة التى أنا فيها
ملحقة بالمستشفى وانفض الاشكال !!

وقد أبلغونى ذلك الحل الحكيم فاضحكى على الرغم من
مضض السجن وتعب الجسم وسوء العاقبة ، وأصبحت أعذر
ذلك العطار الذى حسب أنه استراح من النمل بكتابة كلمة الفلفل

على حق السكر فان هذه الحيلة العطارية ليست باغرب من
حيلة السادة المشرفين على السجون الذين كتبوا اسم المستشفى على
حجرة العنبر ، فاصبحت بهذه المعجزة السحرية مكاناً صالحاً
للعلاج ، مشرقاً بالضياء ، متوهجاً بحرارة الشمس ، معزولاً من
الرطوبة . . . ! ولا أحسب الفرق عظيماً بين من يحاول تضليل
العناصر الطبيعية بكلمة على حق كبير ، ومن يحاول تضليل النمل
بكلمة على حق صغير فهما ولا ريب في البراعة سواء

ولما قلت لهم إن المستشفى فيه حجرة تدخلها الشمس ويتخللها
الهواء وتصلح للإقامة فيها قالوا : « وكيف تقيم فيها ؟ أليست
فيها دواليب الملابس ؟ »

قلت : « وهل يستحيل نقل هذه الدواليب ؟ أليست صحة
مريض أولى بمكان في المستشفى من دولاب ؟ »

فدار البحث أياماً بين السجن والادارة العامة والأطباء
والنيابة وغيرها من المراجع التي لا أدريها ، ثم ظهر بعد طول
البحث وشدة التنقيب أن الدولاب الأصيل أولى بمكانه في
المستشفى من الانسان الطارئ الغريب !

وغاية ما صنعوه بعد جهد جهيد أنهم نقلوني من الحجرة
الأولى إلى حجرة أخرى في طرف العنبر مزيتها على زميلتها

أن الشمس تناولها — في الظاهر — من حائطين اثنين بدلا من حائط واحد

ولما انتقلت إليها واقترحت عليهم أن يفتحوا في الحائط الآخر كوة صغيرة تنفذ منها الشمس إلى داخل الحجره ، حسبت من دهشتهم واستغرابهم أنني طلبت إليهم أن يفتحوا ثلثة في الدين أو ثلثة في نظام الدولة .. ساحنى الله !

غير أنهم في هذه الحجره الجديدة قربوا الشبه بينها وبين المستشفى من وجوه مختلفة غير كتابة العنوان على الباب ، فاعلقوا شعاع الباب بالزجاج وجعلوا للنافذة رتاجاً يفتح ويقفل ، ومدوا إليها أسلاك النور الكهربي الذي لا ينقطع طول الليل عن المستشفى الأصيل ، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد ما استحال ترك الحجره بغير نور ، وبعد ما ثبت أن بقاءى في الظلام الحالك بلا قراءة ولا حديث ولا شاغل من الساعة الخامسة في المساء إلى الساعة السادسة في الصباح ، أسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر هو علاج وبيل لا ينصح به أحد من الأطباء .
ولكنها إباحات السجن ولا بد في طى كل إباحة من قيد أو قيود .

فالمفتاح الذى ينيرو ويطفىء النور لا بد أن يركب عند الباب

من خارج الحجرة ، ولا يصح في حكم النظام أو حكم
« الناموس » أن يركب في داخلها لكي أفتحه وأقفله حين
أحتاج إلى فتحه وأقفاله

وهو في تركيبه خارج الحجرة يظل معرضاً لكل سجين
يعبر بالعنبر أو يمشى في الدور ، ولا يكون معرضاً لسجين
واحد يحرص عليه لأنه ينير له ويعينه على شأنه ، ولأنه النظام
ولا تفسير ولا تأويل لما يقضى به النظام !

فاذا فرغت من القراءة الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو
الثانية عشرة فسبيلي أن أقرع الباب السميك أستدعي الحارس
ليتولى هو بيديه « شعائر إطفاء النور » فاذا كان قريباً
متيقظاً في تلك الساعة فالخطب هين ، والدعوة لا تطول إلا
ريثماً تجاب . أما اذا ابتعد أو نام فالحل الوحيد في حكم النظام
هو ازعاج السجناء الذين معي في الدور جميعاً لإدارة المفتاح
الصغير ، فان لم يكن هذا فميتى سهران إلى الصباح لأن أعصاب
عيني لا تألف الغمض في الضياء

١ - أخلاق

١ - كذا

الآلفة شرط المعرفة

ولا تصدق هذه القاعدة على شيء كما تصدق على أخلاق الناس واستطلاع أسرار الإنسانية التي لا تنكشف — وليس في الوسع أن تنكشف — من اللقاء الأول

فنحن لا نعرف شعباً من الشعوب ولا فرداً من الأفراد حق عرفانه حتى نقاربه ونعاشره ، ونزيل ما بيننا وبينه من حجاب الغرابة الذي يمنعنا أن ننفذ إلى قرارة نفسه وتتغلغل إلى بواطن أعماله ومناشئ إحساسه ، وما يراه هو طبيعياً عادياً في نظره ويراه الآخرون في أنظارهم غريباً أشد الغرابة بعيداً أشد البعد من العادات المألوفة

لكن الصعوبة في الأمر أن الغرابة مانعة للمعرفة من جهة ولازمة لها من الجهة الأخرى

مانعة للمعرفة لأنها تحجب عنا الأسرار التي تنطوى وراء الظواهر ولا تنكشف إلا بانكشاف الأستار والحواجز

ولازمة للمعرفة لأن المعرفة هي التمييز والفصل بين الحدود ، وكيف ترانا نميز إنساناً من إنسان ، إذا نحن لم نشعر بوجود الاختلاف والغرابة بينه وبين غيره ؟ أو نعتقد أنه مخلوق غير الخلائق الأخرى في دخيلته وظاهر أمره ؟

لهذا كانت المعرفة الحقيقية أصعب الأشياء وأدعاها إلى
اليقظة والانتباه . لأنها تفرض على النفس أن تجمع بين النقيضين
في وقت واحد ، وترى الشيء غريباً ومألوفاً في حالة واحدة ،
وإنما يكون تدليل هذه الصعوبة بأشراك الشعور والخيال والعقل
في البحث عن الأمور التي نبتغي عرفانها والنفاذ إلى بواطنها ،
فما يراه العقل متناقضاً مختلفاً يجمعه الشعور في نور واحد ويتولاه
الخيال بالتقريب أو التبعيد حتى تتمكن النفس من إدراكه
واستيعابه على حقيقته التي تخفى عن الحس والمشاهدة

وفي السجن يعاني الباحث هذه الصعوبة بعض المعاناة حين
يراقب أخلاق السجناء ويعالج التميز بينهم وبين سائر الناس في
الطبائع والعادات . فهو يراهم مئات وألوفاً ولا يرى غيرهم في
حالة تعارض حالتهم ومعيشة تفترق من معيشتهم ، فيسبق إليه —
من ثم — أنهم وسائر الناس على حد سواء في جملة الأحوال ،
وأنتك تستطيع أن تبدل ألفاً منهم في جنح الظلام بألف ممن
يعيشون خارج السجن دون أن تحس الفارق بين هؤلاء وهؤلاء .
عند طلوع الصباح !

إلا أن هناك أمراً خليقاً أن يهون هذه الصعوبة ويزيل اللبس
والاختلاط بعض الازالة ، وذلك أن المسافة بين هذه البيئة

« السجنية » وبين الباحث الغريب عنها تظل بعيدة مفصولة مهما
يطل الوقت ويطل الفارق في مكان الإقامة ، فتبقى بينه وبينها
على طول المدى وقرب الجوار مسافة كافية للرؤية الصحيحة
والتمييز الواضح

ومن السهل على من يراقب أحوال هؤلاء السجناء أن
يقسمهم قسمة عاجلة إلى طائفتين من المجرمين مختلفتين في البواعث
والأخلاق وضروب الاجرام

فهناك مجرم الاعتداء الذي لا يبالى ايلام غيره
وهناك مجرم الخسة الذي لا يبالى ما يجلبه على نفسه من
العار والمهانة

وأظهر ما يبدو من خلائق المجرم الأول — مجرم الاعتداء —
أنه جامد الحس من ناحية الشعور بالألم على إطلاقه ، فهو يتحدث
عن أفع المصائب وأشنع حوادث القتل والتعذيب كأنه يتحدث
عن فكاهة لا إزعاج فيها للسامع ولا للمتكلم ، وقبلما يدرك
استغرابك إذا أنت استغربت هذه اللهجة منه في وصف
الفضائع والموجعات دون التفات منه إلى وقعها أو مبالاة
فرائسها أو المستمعين لقصصها . وقد كان في الدور السادس —

وهو الدور الذى فوق دورنا الخامس فى عنابر السجن —
 فتى من قرى الصعيد قتل أخته فى القاهرة لأنها هربت من
 أهلها ولاذت بدور البغاء ، فتعقبها حتى عثر بها فى الدار التى
 تسكنها ، وراوغها أياماً وهو يخفى عنها قصده حتى اطمأنت إليه
 وسالمته ومهدت له صنوف المتعة بصواحبها وجاراتها ، وهو
 يتحين الفرصة لقتلها فى غفلة عمن حولها ، إلى أن سنحت له
 ذات يوم ففاجأها بطعنة سكين وانقض عليها بالطعنات دراكا
 حتى فارقت الحياة . وفى ليلة من ليالى السجن طاب له السمر
 واستدرجه زملاؤه فى الحجرات المجاورة له إلى شرح قصته ،
 فمراعى إلا أن أسمع هذا الفتى يصف قتل أخته ، وكيف غرر
 بها ، وكيف تناول الطعام معها وهو يخفى السكين فى ثيابه ، ثم
 كيف طعنها بعد ذلك ، وكيف صاحت به تناديه باسم الاخوة
 وتناشده حرمة المشاركة فى الأمومة ، ثم كيف قضى عليها
 واحتز رأسها وسافر به إلى بلده ليريه أنداده وقرنائه الذين
 عيروه من قبل واستطالوا عليه . فلو أنه كان يتكلم عن ذبح
 شاة أو دجاجة لما اختلف الأمر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان
 أقل من ذلك مبالاة بما يقول واسترسالاً فى النكات والمزاح
 كلما عبث به أصحابه وتعمدوا احراجهم واستفزاز طبعه . وليس

هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تشير الغضب والنقمة ولا تسكنها لا تخلق البلادة ولا تعمى الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكى والاستعبار والأسف على ما كان من سبب القتل والاضطرار إليه

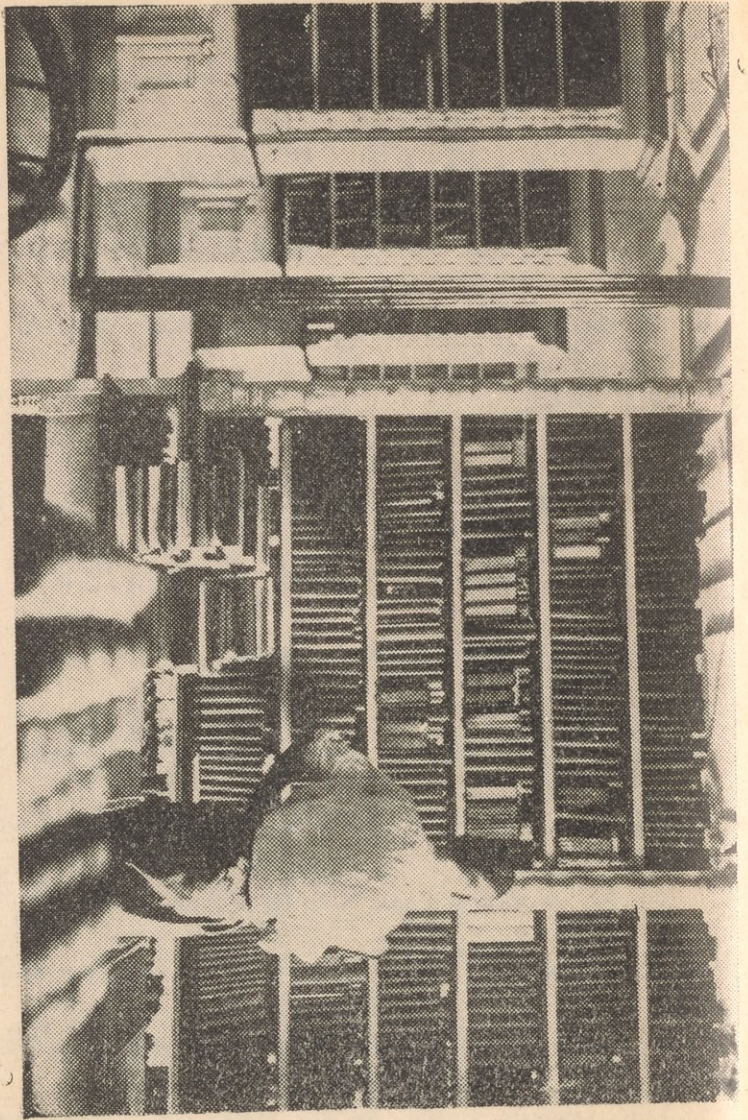
ومع هذا ربما كان لهذا الفتى القروى الجاهل الحشن عذره من عادات قومه وشدة الغيرة فى نفسه ، وربما كان يبالغ فى الاستخفاف بفعلته لتخدير شعوره والأنفة من الندم على شىء هو من واجبه فى شرع فتوته وفى شرع أبناء بلده ، ولما سمعت فتى متعلماً يباهى بقليل ما تعلم من الدروس الابتدائية والثانوية ويكلم سجناء « الحماية » باللغة الانجليزية ليدهم على حظه من الدراسة ، ويريهـم أنه سليل طبقة غير طبقة المسجونين معه فى مثل جرمه ، وكان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لاشتراكه فى جماعة مؤلفة للسطو على الأغنياء ، فلما استدرجوه ذات ليلة للسكلام عن سبب سجنه لم يتردد فى ذكر السبب الصحيح ، ولم تبد على كلامه مسحة من الندم والخجل ، وإنما كان يبدو عليه الزهو بانتمائه إلى جماعة لها فروع وقرارات ورؤساء أقسام واجتماعات ومداولات ، وكان يتحدث عن

قتل من تقرر عندهم قتله كأنه يتحدث عن عقبة يفخر بالمهارة في إزالتها ، ولا يفرض لها حياة تصان وتتعلق بها الآلام والأحزان ..

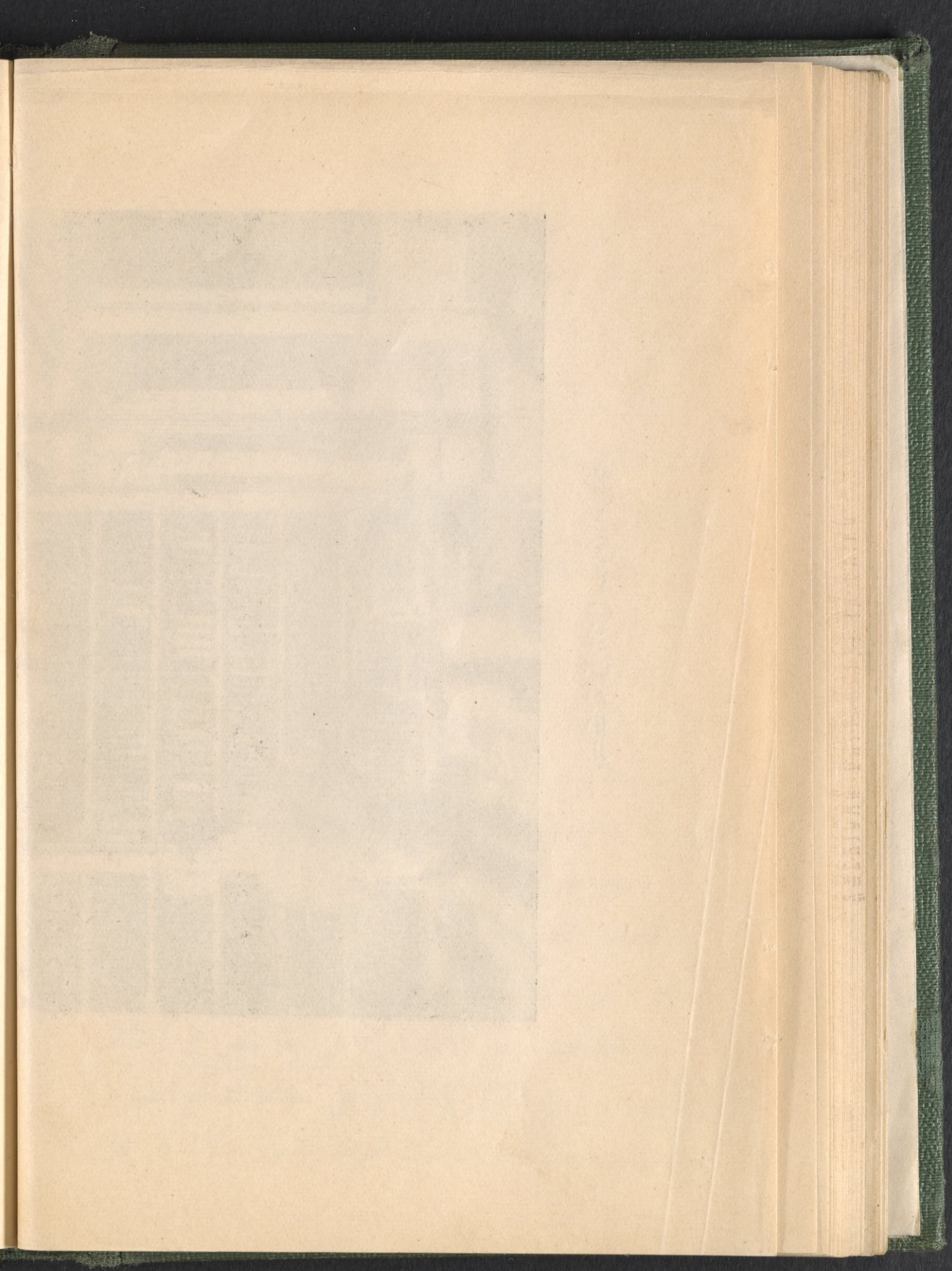
وقد كنت أسمى هذه البلادة في هؤلاء المنكوبين « أنانية » أو إمعاناً في الأثرة العمياء لو كانوا يشعرون بالألم في نفوسهم ولا يشعرون بالألم في نفوس غيرهم ، ولكنهم على ما علمت من أطوارهم الكثيرة محجوبون عن شعور الألم حيث كان ، فلا يحسونه في أبدانهم ولا في ضمائرهم كما يحسه الآخرون فيما يعترتهم من المؤلمات الجسدية والفكرية ، وربما ضرب أحدهم رأسه بالحائط ضرباً عنيفاً دامياً ليتهم غيره بضربه ، أو ربما وخز نفسه وعرض أعضائه للتلف من أجل أيام قليلة يطمع في قضائها بالمستشفى أو تحت الرقابة الطبية ، وقد قطع أحدهم بضعة من جسمه بحديدة كلية يكتبون عليها في السجن رقم السجين ولا تصلح للقطع إلا بجهد شديد ، لأنه قدر أن هذه الفعلة قد توقع مأمور السجن في عقوبة أو شبهة إهمال !

فالآفة عند سجين الاعتداء إنما هي آفة نقص في وظائف

الشعور وليست آفة « الأنانية » على معناها الشائع المفهوم ، وليس ببعيد أن مجرم الإنسان لفرط الشعور بالألم كما يجرم



مكتبة في بعض سجون أمريكا



لقلة الشعور به في نفسه وفي غيره ، ولكن هذا الصنف من
المجرمين نادر جد الندرة بين من شهدت في سجناء «قره ميدان»
أما مجرم الخسة الذي لا يبالي العار والمهانة فهو حقير بين
ضراة المجرمين المعتدين ، يقولون عنه أنه «نتن» يدخل السجن
في غير طائل ويصبر على الإهانة وسوء المعاملة من السجنانيين
ولا يستثار

ومعظم ما يقترفه هؤلاء المجرمون «الاخساء» مقصور على
صغائر السرقات والاحتيال على الصغار والاغرار وما إلى ذلك
من جرائم النذالة والطمع الوضيع

وهم في الحق «نتنون» كما يقول عنهم زملاؤهم من
أصحاب الضراوة والاعتداء: شعورهم بالعار ضعيف وشعورهم
بالزهو أضعف ، ويعترفون على إخوانهم علانية بأقبح الرذائل
في غير حياء ولا إحساس يفقدان الحياء ، ومع هذا تأتي الطبقة
الانسانية أن تحرم أحداً نصيبه من الزهو والمباهاة ولو كان من
أدنى الأدنياء ، فحتى هؤلاء يزهون فيما بينهم ببعض الخلال
ويأخذون على أنفسهم بعض العيوب ، وبماذا يزهون ؟
يزهون بالافتتان في أساليب النذالة والاحتيال الشائن

المرذول وعلى من يعيبون؟؟... يعيبون على الجاهل
بتلك الأساليب! وعلى المحدثين في الاجرام لأنهم بلهاء لا يفهمون
الخدع و « المصطلحات » التي يفطن لها ذوو الدراية
بالسجون!! وهم في كل حال لا يعدون الزهو الرخيص الذي
لا يكلفهم جهداً من الجهود

٢ - أخلاق

3

قائمة - ٧

من أصدق المقاييس التي تسير بها طبائع النفوس الفكاهة
والغناء

فإنك إن تجد الفكاهة ولا الغناء في نفوس خلت كل الخلو
من الخير والمحبة الانسانية وصلاح الفطرة للعطف والمواخاة .
فالسليقة التي تعرف الف—كاهة تعرف مواطن الضعف
والتناقض من النفوس الانسانية ، أو تعرف — بعبارة أخرى —
أسرار النفس وخفاياها وما تداريه وما تكشف عنه وما
تقابل به الدنيا وما تحفظه في أعماق سريرتها ، فكأنما تلك السليقة
على اتصال أخوى حميم بجميع النفوس الأدمية ، كاتصال الصديق
بصديقه المطلع على دخائل قلبه وحقائق نياته ، وكأنها على
استعداد دائم لأن تضحك مع جميع النفوس ضحك السرور
والمشاركة ، وأن تضحك منها ضحك العطف والمداعبة ، وتلك
حالة نفسية لن تخلو من الخير والشعور الحسن من ناحية بنى
الانسان .

أما السليقة التي تحسن الغناء أو تحب الاضغاء إليه فهي سليقة
تحس وتعرف الوزن والنظام بشيء من الزكاة والالهام ، وهي
— كتلك — سليقة تلتقي بالنفوس الأخرى في مجال العاطفة
والذوق والشعور بالجمال

وفي السجن لم أر إلا عدداً يسيراً جداً يحسن الفكاهة ، وإن كنت رأيت سجناء كثيرين هم موضوع فكاهة ومثار ضحك ودعابة . ولا أذكر أنني سمعت كلمات كثيرة تدل على فطنة للمواقف المضحكة والمساجلات النفسية اللطيفة ، وإن كنت قد سمعت كثيراً من النكات المحفوظة والفكاهات المكررة التي يفوهون بها كما تفوه البغاء بما يلقي إليها من الأصوات

ولم أسمع قط غناء حسناً من سجناء الجرائم الغنيقة أو سجناء الجرائم الخسيسية . ولكنني سمعت الغناء الحسن من بعض الفتيان المحكوم عليهم بالحبس في قضايا تهريب المخدرات وتعاطيها ، وهم في أغلب الأحيان مسخرون ينقادون لكبرائهم المسيطرين عليهم ، لم تنغرس فيهم بعد ندالة الجريمة العامة المدبرة التي تطلب الكسب من وراء الأضرار بالناس ، ومن كان منهم يتعاطى المخدرات فهو ضعيف يعتدى على نفسه وليس بمجرم من أولئك الجناة الأشرار الذين يعتدون على غيرهم عدوان المكيدة أو عدوان الضراوة

فاذا اتخذنا الفكاهة والغناء مقياساً للخير والمحبة الإنسانية في نفوس السجناء فأهل الخير فيهم قليل ، وهذا القليل الموجود يشف — في أغلبه وأعمه — عن معدن وضيع أو معدن

مشوب ، وإن لم يحز لنا أن نقول إن الخير فيهم معدوم وإن
 صلاحهم مئوس منه ، ولا سيما حين يعالجون بما يناسبهم وحين
 يقترب حسن النية في علاجهم بالفكرة الرشيدة والعزم الصبور
 ويخطئ من يظن أن السجناء لا يغنون كما يغني الطلقاء
 والأبرياء كلما وجدوا فرصة للغناء ، فانهم ليهتفون ولا يقصرون
 في الهتاف ملء صدورهم كلما خلاهم الجو تحت ستر من الليل ،
 وربما كانوا أشد كلفاً بالشدو والهتاف من الطليق المرسل على
 أرسانه ، لأن رفع الصوت وسيلة من وسائل الشعور
 عندهم بالحرية وإرسال النفس على السجينة ، فهو مطلوب لهذا
 الغرض ولو لم يكن فيه طرب أو سلوى ، ولا حاجة بالإنسان
 إلى دخول السجن لعرفان هذه الحقيقة بل لاستماع هذه
 الحقيقة الصارخة من مسافة بعيدة ! فإن العبور على مقربة
 من السجن بين العشاء والساعة التاسعة كاف لاستماع ما يسمعه
 السجناء في الداخل من الغناء والهتاف ، وقلما تمر ليلة واحدة
 دون أن يدوى السجن بأناشيد أهل الصعيد وموويل أبناء
 البلد على اختلاط لا تميز فيه بين السامع والمسموع ،
 ولكن أهل الصعيد وأبناء البلد كما يعلم القراء يغنون
 كأنهم يتكلمون ، أو هم يغنون ويصيحون حين يعوزهم السمر

والكلام وتكل ألسنتهم من السكوت ، وليس هذا
الذى نعنيه بالغناء المبين عن الطبائع والأخلاق ، وإنما نعني به
الأوزان الفنية التى تتجلى فيها الأذواق وخليجات العواطف
وألوان الاحساس ، وهذا الذى نقول إنه قليل نادر بين
المجرمين .

وربما كان الأولى بى أن أتخذ مقياساً آخر للخير فى طبائع
زملائنا السابقين يعيننى أكثر مما تعيننى هذه المقاييس التى تعم
جميع الباحثين فى هذه المشاهدات ، لأننى اختبرت من معاملة
زملائنا صنوفاً من البر والطيبة مختلفة المصادر والأسباب ،
فكنت أنا نفسى مقياساً محسوساً يقاس به ويقيس !

فمنهم — وهم القليل — من كان ينطوى على كرم مآثور
ويلوح لنا من بعض بواده وتصرفاته أنه يقبل على نفسه حالة
السجن ومضائكه وآلامه ولا يقبل أن يعانيتها رجل من ذوى
الصناعة الفكرية ، كأنه يحس فى قرارة ضميره بفارق بين
عمله وعملنا ، وسائقه إلى السجن وسائقنا ، ولا يأنف أن
يعترف بهذا الفارق ثم يرجع كفتنا على كفته عند الموازنة
ومن هؤلاء من كان أساء لنا واهتمامه براحتنا والتسرية عنا

يكلفانه المجازفة الجريمة والاقدام على العقوبة وتضييع حقه
في الاعفاء من ربع المدة وهو الحق الذى يناله كل من قضى
مدة السجن بغير إخلال بقواعد النظام ، ويزيد فى فضلهم
أنهم كانوا لا يطعمون منا فى جزاء عاجل ، ولا ينتظرون الجزاء
بعد الافراج عنهم وعنا ، إذ كان موعدهم بمفارقة السجن بعد
موعدنا بسنوات أو شهور طوال

وقد كان بين هذا الفريق فتي يجيد الغناء بعض الاجادة ،
ويبث فيه شيئاً من الحنين السائغ والبواعث الشجية ، وكان
يخشى الحراس إذا غنى مساء لأنه معروف الصوت فى السجن كله
لا يختلط حيث كان بأحد غيره ، فكنت أسمع بعض زملائه الذين
يخصونه على الغناء يقولون له إن « الأستاذ » — ويقصدوننى
أنا — هو الذى أوعز اليك أن تقترح عليك كيت وكيت من
الأدوار ، فلا يتردد فى الاجابة دون أن يعرفنى أو أعرفه ودون
أن يلتقانى أو ألقاه

ومنهم من لا يبلغ مبلغ هؤلاء فى كرم الخليفة ولكنه
يخدمنا ويبدل المعونة لنا عن غبطة منه بانشاء العلاقة بينه وبين
أناس يراهم أرجح منه منزلة وأكبر ممن تجمعهم به علاقة
الزمالة ، ويرضيه أن يستحق من هؤلاء الناس كلمة الشاء
وعرفان الجميل والشعور بفائدته لهم فى حالة من الحالات ،

وتلك ولا ريب نية خير لا غبار عليها ، لأنها دليل على طبيعة
لم تتجرد من التطلع إلى حسن الظن وطيب الأحدوثة
ومنه من كان باعته للخدمة والمعونة إعجابه بالجرأة كما
يفهمها ، ونظره إلينا كما ينظر إلى أنداده الجسورين في معارك
الفتوة ومقاحم الضرب والمصارعة ، وهو باعث لم نكن نعتبط
به وإن كنا لانسى حسن النية فيه !

وكلهم كانوا يضمرون لنا شعور المودة ويخلصون الرغبة
في بذل المعونة الميسرة لهم كلما أتاحت لهم وسيلة من وسائلها

على أننا لم نخطئ في معظم السجناء عاطفة مصرية صميمة
لاحظناها في جميع المصريين على تباعد الطبقات والأقاليم ، ونعني
بها « عاطفة العائلة » وما يتفرع عليها من رعاية الأرحام
والأسنان

رأيت مرة طفلاً صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم
سجن مصر ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث في الجيزة ، وكان
هذا الطفل مع أقرانه الصغار ينتظرون الترحيل في فناء السجن
المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين ، فمر به سجين من العائدين
في جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة

الطبيعية التي يستشعرها الصغير في غيبة أهله وقال له « جوعان ! »
فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له : « وماذا أصنع لك
يا بني ؟ » وانصرف أسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك
في الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه
رغيف سرقة من الخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه
واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو نظروه وهو يسرق الخبز
لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد
ورأيت رجلاً شيخاً نازلاً من درج المستشفى وهو
لا يقوى على الحركة ، ولا يجد الممرض الموكل به وبغيره من
يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة
عشرة لا يدل مرآه على ضلالة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه
أن يبصر الشيخ المريض يتعثّر في خطاه ويثني من وجعه ،
وتقدم إليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله
دون أن يكلفه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا
العبء الفادح ليافع مثله

وتلاحى شيخ فان وفقى عارم مشهور بالشر والعريضة في
السجن وفي الحى الذى يعيش فيه ، فسبه الشيخ سباً لا يطيقه
من قتي في سنه ، ولا يأمن من يسبه به ان يستهدف لضربة

قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب إلا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « أنظروا إلى الرجل الشايب يعيب ولا يخجل ! . . » وقال للرجل الشايب : « لو غيرك قالها لقتلته ! ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبى ؟ »

وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة في أخلاق الأمة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد في هذه الأمة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية والبيتية على أجمالها ، ولهذا الظاهرة في تكوين الأخلاق وتحويل العادات قرار عميق لا يغفل عنه المصلح الاجتماعى المشغول بأطوار هذه الأمة العريقة ، ومن زمام هذا الخلق الأصيل ينبغى أن يتناول المصلح الاجتماعى أهم دواعى الإصلاح فيمن يحتاجون إليه من الضالين والزائغين ، سواء كانوا من نزلاء السجون أو من المطلقاء الذين نجوا من العقاب ولم ينبج الناس مما يجترحون عامدين وغير عامدين

الوعظ

من المناظر — ولك أن تقول من المسامع — القليلة
المؤنسة في السجن حلقات الوعظ التي يعقدونها بين حين وآخر ،
ففيها يتسنى لمن بالسجن أن ينظروا إلى اجتماع إنسان يخاطب
فيه السجناء خطاب أصحاب النفوس التي قد يثمر فيها الكلام
وقد يرجى لها العلاج !

رأيت أول حلقة من هذه الحلقات يوماً من أيام الاثنين
على ما أذكر ، إذ كان بعض الحراس ينطلقون بين الحجرات
ينادون : « المسيحيين المسيحيين » وأنا أعجب لهذا النداء
ولا أدري لماذا يجمعون المسيحيين وحدهم دون بقية السجناء ،
وقبل أن أسأل أحداً عن القصة رأيت الواعظ المسيحي في
ثيابه السود ، فذكرت الوعظ في السجن وانتظرت أثناء
الرياضة الصباحية حتى أسمع ما يقول باسم الدين لهؤلاء
الخارجين على الشرع والقانون

وما هي إلا لحظات معدودات حتى أقبل السجناء المسيحيون
أفراداً متفرقين من مذاهب شتى لا تجمعها كنيسة واحدة ،
جلسوا بين يدي الواعظ القرفصاء إلى زاوية مشمسة في فناء
السجن ، وجلس هو على كرسي وفتح التوراة وأخذ يقرأ منها

ما صادفه من القصص ويشرح معناها بصوت يعلو ثم يعلو حتى
يسمعه من في الميدان القريب

ومنذ ذلك اليوم كان يطيب لى أن أشهد هذه الحلقات
وأسمع ذلك الواعظ كل يوم اثنين ، لأنه كان يتحدث عن قصص
التوراة حديث الحاشية المخلصة عن النوادر الملكية التي تقع
بين كبار السلاطين وكبار الأتباع ذوى الدالة عليهم ، وكان
يروى التجارب التي يبلو بها الله أنبياء بنى إسرائيل كأنها
مفاجآت الأب الشيخ الحكيم حين يمتحن مدارك الأبناء الصغار
ويغضب بما يراه من حيرتهم البريئة وضعفهم المستسلم ، ويضحك
أحياناً ضحك العطف والرجاء حين يكشف لهم عن دعواهم
القاصرة وغرورهم المتعجل ، فيطيب لى أن أرى التوراة منقولة
إلى عالم الخيال الفطرى والتصوير الشعري والتمثيل الفنى الذى
لا تكلف فيه

وكان من عادته إذا فرغ من شرحه ووعظه أن يطلب إلى
أحد السجناء أن ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يجيش فى نفسه
ونفوس زملائه ، فمنهم من يحسن الكلام ومنهم من يتعثر
بالألفاظ المألوفة فى الأدعية والصلوات ، وكل أولئك مما يستحب
الاصغاء اليه والتأمل فى مغزاه

ولا أحسب أن أحداً منهم كان يجيد الكلام في دعائه
وصلاته كما كان يجيده رجل من أضرهم بالشر وأولاهم
بالعقاب وأسوأهم سيرة بين السجناء ، وإن شهدوا له بالبراعة
والذكاء : وهو تاجر مخدرات مشهور

سمعتة مرة يصلي ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بني
الانسان . . . فسألت عنه فقيل لي هذا فلان صاحب الحيل
المعروفة في ترويج المخدرات ، وكنت قد سمعت عنه وعن
قضاياه وأحاييله في إيقاع صرعاة ، وإغرائهم بتناول السموم
وإدمانها ، فقلت لو كان هذا المصلى الخاشع يدعو الله ليستجاب
دعاؤه لما دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه ! ولكنها
حيلة جديدة من حيله الكثيرة ، ولعلها أيضا من حيل التخدير !

ويتردد على سجن مصر عدة من الوعاظ المسلمين بين
الصنيحة والظهيرة ، ولكن في غير موعد مقرر أو يوم معلوم
فاذا وصل أحدهم إلى السجن جمعوا له سجناء دور من
الأدوار في ساحته الأرضية ، وجلس هو على كرسي أمامهم
ينصح لهم ويحذرهم عقاب الآخرة بعد عقاب الدنيا على طريقته
في النصيح والتحذير

فبعضهم كان يحفظ خطبه ويعيدها كما هي كل مرة بعد
تحويل طفيف لا يقدم ولا يؤخر ، وهو يحاول أن يذهل سامعيه
من السجناء عن هذا التكرار برفع الصوت والتلبس بالغضب
والصرامة في الزجر والانداز ، ويمضى في تكراره مطمئناً إليه
لأنه يعظ في كل مرة سجناء دور واحد من أدوار السجن
الكثيرة ، وتنقضى مدة طويلة بين العظتين في الدور الواحد يخل
إليه أنها كفيلة بالتشكك والنسيان .

وبعضهم يتوخى الطريقة العصرية في إختيار المناسبات
واتخاذ المناسبة الأخيرة من بعض الحوادث الطارئة التي لها
مساس بأحوال سامعيه

وبعضهم يعتمد على التأثير بالسن والمهابة والسمت والشباب
الفاخرة ، ويحيط عظامه بمراسم طنانة كأنها مراسم أصحاب
العزائم والتعاويد

وكان يعينني أن أراقب السجناء حين يحضرون إلى العظات
وحين ينصرفون ، لأرى كيف يقبلون عليها وكيف ينصرفون
عنها وكيف - فيما بين ذلك - يستمعون إليها

فبدأ لي أن أناساً منهم يحضرونها بروح الهازي المستخف
الذي يتحدى الواعظ بشقاوته واستعصاء أمره ، وكأنما

يقول بينه وبين نفسه : (هلمو إلى ذلك الرجل الطيب الذى يحسب أنه يفهم من الأمور مالا نفهم ، لنرى كيف يعلمنا العقل والدربة ، ويصلحنا بكلماته وتهويلاته)

وأناس منهم يرحبون بساعة الوعظ كما يرحب التلميذ بساعة اللعب يستريح فيها من حصة الدراسة ، ويأنس فيها بالجلوس بين إخوانه فى شىء من الطلاقة والسماحة

وأناس آخرون يرحبون بساعة الوعظ لأنهم يغتنمون فيها الفرصة حين يزجرهم الواعظ. ويصب عليهم اللوم والتبكيث ، ليشوه الشكوى من قسوة الحراس وجور الأحكام . ويلقوا شيئاً من اللوم على (النظام) وشيئاً من اللوم على الأيام

ولا تخلو جموعهم من أفراد تلحهم عند انصرافهم منكسرى الرؤوس كاسفى البال من أثر الوعظ أو من تداعى الخواطر واسترسال الخيال ، وربما سمعتهم يرثون لأنفسهم ويندمون على ما فرط منهم ، ويودون لو هداهم الله وردهم أناسا كسائر خلقه لا يعرفون المحاكم والسجون ، ولا يبتغون العيش إلا من الرزق الحلال ، ناعمين وادعين بين الأمهات والآباء والأزواج والأبناء ، ثم يعلقون ذلك كله على القدرة والاستطاعة ، وهم مستقرون فى ضمايرهم على أنهم لا يقدررون ولا يستطيعون ،

لأنهم لا بد لهم من العيش وكسب الرزق ، وهم يشكون بؤس
الصناعات وشح الناس وندرة الأعمال

على أن أثر الوعظ في الجملة ضعيف سريع الزوال ، وقد
يبلغ من ضعف أثره وسرعة زواله أن ينقضه بعض سامعيه في
ساعة سماعه ، وأن يصبح الواعظ نفسه هدفا يرميه أولئك
الخبثاء ، وصيдаً يصيدونه ، ودليلاً يثبتون به أو يثبتون فيه بطلان
وعظه وضياع جهده وعبث رجائه ، حتى يخيل إلى الإنسان
في هذه الحال أن حلقة الوعظ إنما هي حلقة سباق وصيال بين
الجريمة والهداية ، تلتقيان فيها لتتظار كلتاهما أيهما هي الأقدر على
الظفر بالأخرى وتعريضها بين المتفرجين للهزيمة والسخرية . . .
انتقاماً منها لاعتدادها بنفسها وسوء ظنها بقوة غريمتها ، وقليل
تتمثل حلقة المباراة هذه في شيء كما تتمثل في القصة التالية التي
سمعتها من أحد موظفي السجن ، والعهد على راويها
أعرف واعظاً مشهوراً يطوف بلاد القطر ويحب أن يتخذ
له أبناء من موعوظيه في كل بلدة وكل إقليم ، يرعاهم رعاية أبوية
ويسره أن يرى منهم حفاوة البنوة وتحيتها ، ويمد يده للتقجيل
كلما انتهى من وعظه غير ممتنع ولا ناظر إلى تقجيل يده إلا كما

ينظر الأب إلى تحية الاعتراف والشكر من ولده
وشاخ الواعظ الذي أعنيه وضعف عن الطواف في أنحاء
القطر ، ولكنه لم ينقطع كل الانقطاع عن الوعظ في السجون
وإن أطل الفترة بين عظاته كلما تقدمت به السن
وجاء الشيخ يوما وهو لا يكاد يقوى على الجلوس والحركة
إلا بمعونة معين ، فأذهب في نصائحه على عادته وملا السجن
بأصوات الدعوات يلقيها على سامعيه ، ثم يطلب منهم تكريرها
مرات متواليات بنغمة مرتلة يلقيهم إياها وهو يهتز بينهم على
نغمة ترتيلها ، أو يتركمهم يعيدونها ويسبح في غيوبة العلوية
حتى يفيق منها !

فلما ختم عظاته وترتلاته تدافع السجناء حوله يهمون بتقبيل
يديه والتماس البركة منه فإذا هو يحجم عنهم ويصبح بهم صيحة
منكرة : « مكانك يا ولد ! إياك أن تقترب يا ولد ! من بعيد
يا ولد ! » كأنه يرتل هذه الكلمات على طريقته في ترتيل النغمات !
قلت لبعض الموظفين ممن اتفق وجودهم على مقربة مني
« ما خطب الشيخ بأبي تقبيل اليد من هؤلاء ؟ أزهادة منه في
السجناء ؟ أم زهادة في هذا الصنف من قبيلات الأبناء ؟ »
قال : « لا هذا ولا ذاك ، ولكنه معذور لأنهم مرقوم

مرة ويخشى أن يعيدوا عليه الكرة ، فهو بجانبهم هذه السنوات
ويستعيض الله خيرا من تلك القبلات »

قلت : « ياسوء هذا التقريظ ! أيسرقون واعظهم وهم في
دار العقاب ؟ ! »

قال : « لقد فعلوا جزاءهم الله من أبناء أعقة ، وفعلوها في
يوم تجلى فيه الأستاذ فاختلب القلوب وأبكى العيون ، وأرسل
يديه لهم ينكبون عليهما بالتقبيل ويوسعون من التمسح
والتبجيل ، وهو يحسب أنهم ينتصرون ولا يسرقون ،
وينتفعون بما يفعلون ، فقد أشبعهم وعظا وهداية فأشبعوه
اعترافا ورعاية .

وذهب إلى حجرة المأمور وقد رضى عن نفسه وأحب أن
يكافئها بعطسة أو عطستين من عطسات الايمان والتسميت
برحمة الله . فضرب يده في جيبه الواسع فاذا علبة السعوط
ضائعة . . . وأسرع إلى مكان الساعة الذهبية الثينة فاذا الساعة
ضائعة ! وكيس النقود أين هو ؟ لا ريب أنه لن يبقى في الجيب
إذا فارقه الصاحبتان الحميمتان !

« وطارت بقايا الوعظ من رأس مولانا ، وصاح بالمأمور
يستغيث ، فأكبر الرجل أن يصاب الاستاذ في كفالاته بهذه
الخسارة الفادحة لأنها خسارة في وعظه وفي ماله ، فجمع السجناء

الموعوظين ولما يستقروا بالحجرات ، وأقسم لهم لينكبن
بالسارق شر تنكيل إذا هو اهتدى إليه ولا بد أن يهتدى إليه ،
فلينقذ نفسه من شاء السلامة ولا عقاب عليه

» فأما علبة السعوط فقد عادت فارغة لأن « الشطار »

أحرص من أن يفلتوا من أيديهم شيئاً فيه رائحة الدخان
» وأما الساعة فقد عادت لأنها لا تنفع ، وعاد معها كيس
النقود لأن النقود التي فيه أكبر من أن تبلى ، وسئل
السارقون : كيف تجترئون على الاستاذ وتستحلون ماله وعتاده
وتزدرون وعظه وإرشاده ؟ فقال خبيث منهم : ما اجترأنا عليه
ولا سرقتنا ، وإنما هي بركة من مولانا نغتنمها وتتقرب بها إلى الله !
قال الموظف الذي يقص على ما رآه : تلك قصة الشيخ . فهل
يلام إذا هوضن بهذا المال المبارك وفرط في القبيلات ؟ وهل
عليه جناح إذا هو أشفق من هذا الإفراط في اختلاس البركات ؟ !

ونحسب أننا نظلم السجناء إذا أحلنا الذنب كله في فشل
المواعظ. على رداة طباعهم واستعصاء ادوائهم . فالواقع أن
المواعظ على أحسن حالاتها لا تشفي غلتهم ولا تخاطبهم بما
يناسبهم ولا تتحرى دخائلهم ومواقع التأثير والاقناع من
طواياهم ، والواقع أن إصلاح الأخلاق عسير في السجون

وهي على نظامها القامع الذي يفرض الكبت على الطبائع .
ويشل وظائف الحياة في جسوم قوية ونفوس لا تقصد العفة لطهارة
أو قداسة حتى يقال إنها تستفيد بالرياضة وعلاج الشهوة والارادة
وأشد من ذلك إيذاء لأخلاق السجناء أنهم يفقدون في
السجن الدرس الوحيد الذي هم مفتقرون إليه

فهم أناس منحرفون يحزيمهم القانون بما يحزيمهم به حين
يعتدون ويسلبون ، لأنهم يؤمنون بالعنف والقوة ولا يؤمنون
بالحقوق وآداب الاجتماع ، ويعتقدون أنهم في حرب مع المجتمع
من غلب فيها ظفر ولا جناح عليه ، فاذا استطاع أحدهم شيئاً
فعله ولم يحسب حساباً لما يجوز له وما لا يجوز

فماذا يلقون في السجن من معاملة السجانين ؟ يلقون من
معظمهم ما ثبتت في نفوسهم تلك العقيدة ويزيدهم إيماناً بأن
الأمر قائم على العنف والغشم واعتداء من يستطيع العدوان
ويأس الضعيف المغلوب من انصاف ذوي السلطان ، فيبطل
درس الشريعة والأدب ويبقى درس الواقع الذي شبوا عليه من
نشأتهم الأولى ووجدوا مصداقه في السجن ومبادة الإصلاح
والتوبة ، وكيف يراد منهم أن يعدلوا عن ذلك الدرس ويرتابوا
في صدقه وهم لا يجدون إلا ما يؤيده ويزكيه !

ليلة المستشفى

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دروسا وعقباتا لمن يتقن
العلم والعمل في سبيل الله
والذي جعل في كل شيء
دروسا وعقباتا لمن يتقن
العلم والعمل في سبيل الله

الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دروسا وعقباتا لمن يتقن
العلم والعمل في سبيل الله
والذي جعل في كل شيء
دروسا وعقباتا لمن يتقن
العلم والعمل في سبيل الله

الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دروسا وعقباتا لمن يتقن
العلم والعمل في سبيل الله
والذي جعل في كل شيء
دروسا وعقباتا لمن يتقن
العلم والعمل في سبيل الله

إذا كان السجين يستنفد كثيراً من الحيلة والخبث في تهريب
الممنوعات فمن الحق أن نعلم أنه لا يستنفد حيلته كلها ولا خبثه
كله في هذا المطلب العزيز ، ولكنه يستبقى كثيراً منهما أيضاً
لتهريب صنف آخر عزيز عند السجناء وإن كان بغيضاً أشد البغض
عند الطلقاء ، وهو المرض ، قاتله الله

نعم « المرض » أعنى ولا خطأ في الكتابة ولا في الطباعة !
فإن الأمور لتتقلب أحياناً في السجن رأساً على عقب حتى يتمنى
المرء فيه ما يتمنى الخلاص منه وراء جدرانه ، والمرضى بعض
هذه الأمور

إذا تيسر بقضاء من الله فذاك لطف من الله ! وإذا لم يتيسر
فالصناعة تغني هنا ما ليست تغنيه الطبيعة ، والمرضى الصناعي
المقلد عزاء لمن فاته المرض الطبيعي الأصيل ، حتى يأذن الله بما
يشاء

ولهذا برع السجناء في تقليد الأمراض على أنواعها وفي
مقدمتها الأمراض الجلدية والأمراض التي ترتفع بها الحرارة ،
فليس أيسر عليهم من اصطناع الحمى أو اصطناع الجرب والبثور
الكريهة وأعراض الاصابات السرية ، وتسمع الواحد منهم
يهمس لصاحبه في أثناء الرياضة أو يناديه بالليل إذا أمن الوشاية :

« غداً نحى فى العيادة يافلان ! » أو « غداً فى قسم الجرب ! »
فإذا هو موعد يلتقيان فيه ساعة بل ساعات وقد يطول إلى يوم
بل أيام ، لأن المريض الذى يلتبس مرضه على الطبيب يحجز
فى قسم « الملاحظة الطبية » حتى تنجلي حقيقة دعواه وتسفر
الملاحظة عن دخوله المستشفى أو إعادته إلى الحجرات ، مع
جرعة مريرة من العقاب

وليس العقاب بالشئ المهم عند مصطنعى المرض وطلاب
الراحة فترة من الزمن ولو أعقبها التعب المضاعف ، فإن السجنين
إذا ظفر بالانتقال إلى قسم « الملاحظة الطبية » أياماً فقد غنم
الفراغ من العمل أولاً ، وغنم الطعام المقبول فى بعض الحالات
ثانياً ، وغنم لقاء أصحابه الذين يحال بينهم وبينهم فى الحجرات
والمصانع ، وقد يسعده الحظ عند الطبيب فيغنم الصعود إلى
ساحة الرضوان عند السجناء ، وهو المستشفى !

وهذا المشفى إذا رآه إنسان من الطلقاء عافه لأول نظرة
ولم يصبر على البقاء فيه ساعة واحدة ، ولكنه مع ذلك أمنية
لا يسعد بها إلا المجدود وصاحب الحيلة التى تتسع لصنوف
كثيرة من المداورات والمراوغات ويعلمها بعض موظفى السجن
وبعض الأطباء ، ولكن لا يتسع المقام هنا للتفصيل والبيان

أما كاتب هذه السطور فليس من السعداء المجدودين ،
ولكنه من الأشقياء المطرودين ! لأنه وصل إلى المستشفى وفر
منه تحت سواد الليل ولما تنقضى عليه غير ساعات ، وماذا عساك
أن تصنع لمن يرقى إلى هذه الأمنية الغالية ثم يدركه البطر فيدفعها
عنه بيديه ؟

هكذا حصل . فقد علم القراء أنني دخلت السجن بذخيرة
من السعادة في عرف السجناء تكفي عشرة منهم لو كان هناك
عدل في القضاء !

دخلته بالوان من السقام فوق الاصطناع وفوق التقليد ،
ولم ألبث أن نقلت إلى المستشفى - حكما ورسمًا - وأنا لم أبرح
حجرتي الأرضية التي لا تدخلها الشمس ولا تفارقها الرطوبة !
فلما سألتهم : ألا توجد في المستشفى حجرة مفردة تدخلها
الشمس وتفارقها الرطوبة ؟ قالوا نعم توجد هذه الحجرة
ولكنها مشغولة بدواليب الملابس كما أسأفت في بعض هذه
المقالات ...

وعلى هذا لا بد من البقاء حيث أنا أو الانتقال إلى إحدى
الغرفتين الواسعتين في المستشفى للإقامة هنالك مع جمهرة من
المرضى قد تبلغ العشرين

فبقيت حيث أنا عدة أيام ، وبقى الزكام يتقدم ويتقدم حتى
احتبست الأنفاس وامتنع النوم وعيف الطعام وهبط وزن
الجسم بضعة أرتال ، ولم يبد من الظواهر ما يدل على تحسين
قريب في الحجرة الأرضية المحسوبة من المستشفى ، وهى معزولة
عنه بحراس وإسداد

لقد رأيت ذلك المستشفى — أى رأيت ساحة الرضوان
بعينى — مرات فى خلال زيارة الطبيب ، ولكنى لم أطمح إليه
ولم أزل أتوقاه وأتحماه ، فلما طال الأمر وخيفت العاقبة قلت
ألا تجرب ساحة الرضوان مع المجربين ؟ ألا تفتأ على زهدك
فى هذا الرجاء الموعود وفى كل رجاء عند القوم موعود ؟

وجئتهم صباح يوم لم أنم فى ليلته لحظة واحدة فأنبأتهم أننى
أوثر غرفة المستشفى الواسعة بين أشتات المرضى على البقاء فى
هذه الحجرة المسقمة ، فلما كان العصر جاء الاذن بالانتقال
فانتقلت إلى غرفة المجروحين والمكسورين ومعى بعض الصحف
والكتب والعقاقير والقوارير

وانقضت الساعات الاولى على مايرام :

نظرت من النافذة التى كان سريرى يقابلها فاذا بى أرى

ميدان القلعة والناس يذهبون فيه ويجيئون والمركبات تروح
فيه ذات الشمال وذات اليمين ، وهذه سعة — ولو نظرية —
لا يشعر بها السجين بين حجرات العنابر الأرضية ، فغالطت نفسى
قليلا وقلت خير !

وهبط المساء فأضاءت المصابيح الضئيلة واستطعت أن
أقضى هنيهة فى قراءة الصحف المسائية ولم أكن أستطيع ذلك
فى الحجرة الأرضية قبل إدخال النور إليها ، فغالطت نفسى مرة
أخرى وقلت خير . . . ولعله خير ان !

وسكن ليل السجن إلا إصداً من الطريق فاستوى كل
مريض على سريره ، وأخذوا فى السمر الطريف ، وأى سمر
طريف ؟ هذا مدمن مخدرات قبضوا عليه وأودعوه سجن
الاستئناف ريثما يفرغون من تحقيق أمره فألقى بنفسه من الدور
الثانى إلى الأرض هرباً من الدنيا التى يحرم فيها بلاء المخدرات ! . . .
وهذا مدمن آخر يصف كيف يعالجونه من دائه بنقل الدم من
جسمه إلى جسمه لأن دمه لا يزال كالسم المخدر اذا سرى اليه
أغناه عن الجرعة المشتهاة ، وهذا يذكر أيامه فى سجن طرة الكبير
بين القتلة وقطاع الطريق وهو لا يخلو فى ذكرياته من ازدراء
حاضره والحنين إلى ماضيه ، وهذا يتحدث بما عاناه فى دخول

المستشفى من العنت والبلاء ، وبين ذلك كله جريح يئن وآخر
يقضى ضروراته على مشهد من حوله ، وآخر يستدعى صاحبه
ليعينه عن قضاء ضروراته عاجزاً منه عن القيام والحركة . . .
وقس على ذلك ما عداه

وكانت النوافذ مفتوحة في ساعات المساء الأولى ، فلما
أغلقت واحدة بعد أخرى فشت روائح الدواء وما هو شر من
الدواء في الغرفة المغلقة ، وزاد الكرب حين هدأت الأصوات
وخيم السكون فلم يكن يقطعه إلا أنين مقلق أو زفير محتق من
بعض أولئك المساكين ، وإلا دقائق الساعة الكبرى في مسجد
القلعة تتزايد في عدتها على الحساب العربي كأنها تستحث الليل
الراكد الثقيل

وجعلت أصابر الوقت لحظة بعد لحظة ولا سبيل الى
الاغفاء ، وكلما ابتدأ نصف ساعة قلت سأنام قبل انتهائه وهو
ينتهى وينتهى ما بعده ولا اختلاف بين الانصاف ولا الساعات ،
وكنت أحصى الوقت على الحساب الأفرنجى بظهور الممرض
صاحب النوبة وهو يفتح الباب كل نصف ساعة ويتسلل الى
آخر الغرفة ليدير مرصد الساعة الذى يسجل له مشابرة على السهر

طول الليل ، ومضيت أشغل الوقت خلال هذه الفترات
بفكرة واحدة لا تتبدل وهى : هل من فائدة للانتظار ؟ وهل
أرجو أن أستقر فى هذه الغرفة أياماً وشهوراً وتلك حالتها بضع
ساعات ؟ ثم انقضت الساعة الثانية فطاولت نفسى الى الثالثة فى
انتظار نوم نافر لبثت أنتظره ليالى متعاقبات ، وشعرت بمضض
انتظاره تلك الليلة فى كل لحظة لما خامرنى من خيبة الأمل وما
أحاط بى من التغيص والايذاء ، فلما كانت الساعة الثالثة بلغ الصبر
غاية مداه ، ولما انتصفت الرابعة بادرت الممرض وهو يفتح
الباب وطلبت اليه أن يدعو ضابط الحراسة تلك الليلة ، فتردد
قليلاً ثم لم ألبث أن سمعت قرقرة المفاتيح فى هبوطه على السلم
وصعوده بعد فترة ومعه ضابط الحراسة

سألنى الضابط مستغرباً : ماذا جرى ؟

قلت : لا شئ إلا أننى لا أطيق المكث بهذا المكان ولا
بدلى من العودة الى الحجرة أو المبيت فى أى مكان غير المستشفى
فتبسم كأنما كان ينتظر هذه النتيجة وقال لى : وماذا كنت
تصنع لو صادفتك القرعة فى قسم الامراض الباطنية ؟

قلت : اهو شر من هذا ؟

قال : بما لا يقاس

قلت شكرا لكم على هذه المرحمة ؟ ولكن الحجرة على كل
حال ارحم من الغرفتين ، لانى أجد الارق هنا وهناك ولكنى
أرق هناك ولا أسمع الا نين ولا أشم هذه لروائح ولا أرى
ما يسوء .

وهكذا ودعت المستشفى غير آسف وطويت الليلة ساهدا
الى الصباح ، ثم خرجت من السجن بعد عدة شهور ولوانتى
استعرضت ليالى فيه لما استطعت أن أذكر بينها ليلة أسوأ
ولا أنكأ من ليالى تلك فى ... ساحة الرضوان .

احمد حمزة

الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دلالة على قدرته وقوته
وأنه لا اله الا هو
الغني عن كل شيء

والله اعلم بالصواب
من امر عبده
الذليل المذنب
الفاقر المحتاج
المذنب العاصي
الذليل المذنب
الفاقر المحتاج
المذنب العاصي

أحمد حمزة رجل بارع الذكاء

بل هو أبرع الناس ذكاء إن كان المقصود من الانسان أن

يفهم عكس ما يفهمه الناس

فاذا اتجه الفهم بين الناس من اليمين إلى الشمال فالشيخ أحمد

حمزة خير من يفهم من الشمال إلى اليمين ، وكل ما هنالك - كما

يرى القراء - اختلاف في اتجاه الفهم كالاختلاف في اتجاه

الكتابة بين العرب والاوربيين : فريق يبدأ السطر من يمينه

وفريق يبدأ من شماله ، وكلهم يكتبون ويقرأون

واحمد حمزة هذا ليس بسجان ولا بموظف في السجن ولا

بزميل فيه ، ولكنه طاهى البيت عندي منذ عشر سنوات

ولا يعرف القارىء كنه طريقته في الفهم إلا ببعض الأمثلة

الواقعة ، فالى القارىء من هذه الأمثلة قليل من كثير

أيسر طلب تطلبه منه يجرى على هذا الأسلوب :

— هات قهوة ياشيخ أحمد

— نعم ؟

— هات قهوة

— أجيء بماذا ؟

— بقهوة !

— بقهوة تقول حضرتك !

— أى نعم بقهوة

فيكتفى ولا يحوجك بعد ذلك — لذكائه — الى يمين مغلظة
ليصدق أنك تطلب قهوة !

وكننا على المائدة سبعة فطلبنا من الشيخ احمد حمزة
أن يضيف الى كراسى المائدة الستة كرسيًا سابعاً من غرفة
الاستقبال .

ثم كان الأسبوع التالى فكنا على المائدة أربعة ، وكان
كرسيان من كراسى المائدة خاليين ، ولكن احمد حمزة صف
الكراسى الستة على حسب العادة وجاء بالكرسى السابع من غرفة
الاستقبال ، لأن هذا المكان حق كسبه الكرسى بالاستعمال ...
ولما ضحكنا وأغرقنا فى الضحك نظر الرجل الى الكراسى ونظر
الى ما حوله والى نفسه فى حيرة واستغراب لا يدري فيم يضحك
هؤلاء الناس ولا من يضحكون ... أينكرون عليه زيادة الكرسى
وهم الذين أمروه بنقله قبل اسبوع ؟ أضحكون منه ان خالف
ويضحكون منه أن أطاع ؟ لا جرم يعقل هؤلاء الخلق من اليمين
الى الشمال حين ينبغى أن يكون العقل من الشمال الى اليمين ! ..

وكننت متعباً في بعض أيام التوعلك والانحراف
وكننا نهى مكانا في البيت لاحتضار قطعة من الأثاث ونحب
أن نقيس المكان الذي توضع فيه على حسب المقاس المطلوب
فقلت له عليك يا شيخ احمد بالمتر فقس الحائطين وقل لي
أيهما أطول وأصلح لوضع الأثاث المنتظر ، ففضى هنيهة ثم عاد
يتمتم ويوسوس كمن يناجى الغيب

قلت : ما الخبر يا شيخ احمد ! هل قست الحائطين ؟

قال : نعم

قلت : وكم الطول ؟

قال مثلاً : ثلاثة أمتار

قلت : وكم العرض ؟

قال : كذلك ثلاثة أمتار

فعجبت للأمر لأننى أعرف أن الحجرة ليست مربعة
ولكنها مستطيلة بعض الاستطالة ، وسألته : أى الحوائط
الأربعة قست ؟

قال : الحائط الذى فيه الباب والحائط الذى أمامه !

وكان فى المنزل ضيوف ذات يوم وأنا أفضل إذا كان فى

المنزل ضيوف أن أغسل يدي في حوض المطبخ وأدع لهم حوض الحمام ، فدخلت المطبخ — حرم الشيخ احمد — وطلبت منه صابونة فذهب وعاد بها وأنا أبدأ غسل يدي ووجهي على مهل ولا أحسب أن هناك ما يدعو الى العجلة . ثم خرجت فاذا بالضيوف كلهم عند حوض الحمام ينتظرون الصابون لأن الشيخ احمد أخذ الصابونة من ذلك الحوض ولم يخطر له أن يسأل نفسه لماذا أجشم نفسي أن أغسل يدي ووجهي في المطبخ وأدع لهم الحمام ، وإنما قيل له : هات صابونة فجاء بصابونة . وهذا هو المطلوب ولماذا لا يجيء بها من حوض الحمام ولم يقل له أحد مؤكداً مشدداً : إياك أن تجيء بها من حوض الحمام ؟

أما معجزة الشيخ احمد الكبرى فهي تلك التي صنعها بصورة قصر أنس الوجود وقد تركته هو وتركت المبيضين بالمنزل ونجوت بنفسى الى مدينة أخرى فرارا من ربكة الاثاث المشتت الذي لا يطاق معه قرار . فتجلت هنا عبقرية الشيخ احمد التي تخلف كل ظن وتخرق كل حد وتخرج عن كل تقدير . لقد خطر لي أن أقصى ما يستطيعه الشيخ احمد من إعجازه المعهود في هذه الحالة أن يضع الصور في غير مواضعها منحرفة نحو اليمين أو نحو الشمال وصاعدة الى الأعلى أو هابطة الى الأسفل ، فقيدت مواضعها بمسامير لا تتحول وأوصيت المبيضين أن لا يخلعوا المسامير عند

طلاء الجدران ، ولكن أين يذهب بنسوة الظن بأفانين هذه
العبقريّة التي تهوى أبداً أن تداعب الظنون وتتخطى الآماد مما
تحيط به الأفكار والأوهام ؟ فقد عدت من غيبتى القصيرة
فوجدت الصورة والحق يقال في مواضعها تماماً بلا انحراف ولا
تحريف ، ولكنى وجدت أنس الوجود مقلوباً يقع فيه النيل
موقع السماء وتقع فيه السماء موقع النيل !!

وانما يبدو لنا مدى هذا الإعجاز إذا علمنا أن الشيخ أحمد
من أهل ذلك الإقليم الذى قام فيه أنس الوجود ، فلو كانت
« الرؤية » وحدها كافية لتصوير أثر من الآثار لكان الشيخ
أحمد أولى من المصور الكبير « هدايت » بتصوير ذلك الهيكل
غيباً بلا معاينة ولا استحضار !!

وللشيخ أحمد ملكة نادرة في نسيان الاسماء ثم تحريفها
وتصحيفها عند التذكر أعجب تحريف وتصحيف
فاذا تكلم « راشد » مثلاً بال تلفون في غيبتى ثم سأله :
من الذى تكلم ، فمن المستحيل أن يكون المتكلم راشداً وانما
هو « منشة » على التحقيق أو التقريب :

وينتهى « جاماتى » عنده الى « جماد » .. والشجاعى الى
رجل من « كوم الشقاقة » .. والطناحى الى الصنافى ..
وذو الفقار الى زعفران ! .. وقس على ذلك سائر الاسماء

قلت : يا شيخ احمد . ارحنى أراحك الله بالكتابة ، وأنت
بمحمد الله تعرفها على الاقل خيراً من معرفة الكلام ، فاذا تكلم
أحد فاكتب ولا تعتمد على الذاكرة بعد الآن

وحضرت الى المنزل فسألته : هل من أحد تكلم ؟

قال : نعم . تكلم أربعة

قلت . وهل كتبهم عند ما تكلموا ؟

فقال لى نعم ، وأحضر لى الورقة فاذا فيها البيان الشافى على

هذا النحو الوجيز . إذ ليس فيها إلا هذه السطور الأربعة
سطرا فوق سطر وهى :

أحد تكلم

أحد تكلم

أحد تكلم

أحد تكلم ...

ولما تنازعنى الغيظ والضحك من هذا البيان الذى لا بيان
فيه ، وهذه الكتابة التى خير منها الكلام وخير منها النسيان
بدأ عليه العجب والاحتجاج ، وعلمت أننى المخطئ . لا الشيخ
احمد المعصوم من الخطأ على طريقته العكسية الواضحة . فأتى
حين أقول للشيخ احمد . « إذا تكلم أحد فاكتب ... » فليس

ينبغي لي أن أنتظر غير ما فعل ، فقد تكلم أحد فقال أحد تكلم
وأعاد الكرة كلما عادت الكرة . فأين الخطأ وأين المخالفة
يامنصفون ؟ .

هذه أمثلة يعرف أخواننا الذين خبروا الشيخ احمد نظائر
من طرازها البديع ، والظريف في أمره بعد ذلك أنه جاءني يوماً
يستأذن في « أجازة » شهر للسفر الى البلد على غير عادة
فسأله . وفيه هذا السفر الغريب ؟

قال : يا أستاذ أنهم يوزعون الآن تعويضات الخزان .
وأقاربي وأهل البلد يخشون الغبن وخطأ الحساب ، فأرسلوا
يستقدموني ويلحون علي في شهود التوزيع
قلت . ومن لها غيرك يا شيخ احمد ؟ سافر على بركة الله ..
كان الله في عون البلد الذي أنت هاديه وألبق من فيه .

والشيخ احمد كما علم القارىء ليس بسجان ولا موظف في
السجن ولا زميل فيه ، فما الذي زج به في هذا المأزق المكروه ؟
الذي زج به فيه أننا تركنا له البيت وحده أنا وأخي يوم
كننا كلينا معتقلين ، وقد ظل عمدي الوحيد في كل ماله علاقه
بتدبير شيء في المنزل ، أو إحضار شيء منه حتى انتهت الشهور

التسعة ... ولا حاجة بي الى أن أقول انه لم يقلع خلاها عن ذكائه
البارع ولا عن تزويدنا بالأعاجيب من « وحائده » وأفانينه
فقد استطاع الشيخ احمد بذكائه الثاقب وتجربته السنين
الطويلة أن يعلم أنني أتناول الغذاء نحو الساعة الثانية ولا أغير
هذا الموعد إلا لسبب عارض ، ولكنه لم يستطع أن يعلم أن
مواعيد السجن غير مواعيد البيت ، ولم يستطع أن يصدق
السجانين حين قالوا له إن الساعة الثانية عشرة هي موعد الغذاء
عندهم ، لأنه لا يصدق إلا ما يسمعه من الأستاذ !

وتعبوا في إقناعه بغير جدوى ، وعالجوا إفهامه أن « العنبر »
يقفل عند الظهيرة وأن الموظفين المنوط بهم رقابة السجن
يتصرفون في هذه الساعة ، وهو لا يفهم ولا يزيدهم على أن
يقول : « إن الأستاذ لم يتناول غذاءه قط في الساعة الثانية عشرة
وقولوا ماشئتم فأنا لا أصدق لكم كلاماً حتى أسمع من لسانه ! »
وهيات ذلك إلا باذن وموعد زيارة وكتابات وردود

وكان السجانون قد عرفوا الشيخ احمد وخبروا منهاجه في
فهم الأمور ، فولعوا بعناده واستثارته ، وأنذروه يوماً لأن لم
يحضر غداً قبل الساعة الثانية عشرة ليدخله السجن ولا يخرج
منه بعد ذلك أبداً

ولم يحفل الشيخ أحمد بوعيدهم ولم يتقدم لحظة عن الموعد الذي اختاره لحضوره . فلما دق الباب كان السجنانون على أهبة القبض عليه ، واتفق ثلاثة منهم على استدراجه وجذبه إلى داخل الباب ، فأخذوا يديه وشدوا عليه وهو يستعين بالله ويقاوم بقوة الجبارين وقوة الخائفين ثلاثة رجال ليسوا بالضعاف ولا بالهينين .

والشيخ أحمد لا يعلم أن دخول السجن إنما يكون بتحقيق وأمر بالقبض أو حكم من القضاء وإثبات في الأوراق والسجلات ، بل كل ما يعلمه أن من جاوز عتبة البناء المرهوب فهو مسجون لا فكاك له حتى يشاء السجنان !

فماذا ينتظر ؟ أينتظر حتى يتغلب عليه هؤلاء الظلمة العتاة ويوقعوه في الفخ الذي ليس بينه وبينه إلا شبر واحد أو شبران اثنين ؟

لا وحق الأولياء ومشايخ الطرق أجمعين ! لقد حصلت بركتهم ونفخوا في عضلات مريدهم وربيبهم حتى حار السجنانون من أين له كل هذه القوة التي دافعهم بها مجتمعين . فلم يستطيعوا أن يزحزحوه شبراً أو شبرين ، وأفلتوه وقد غلبوا ضحكاً ،

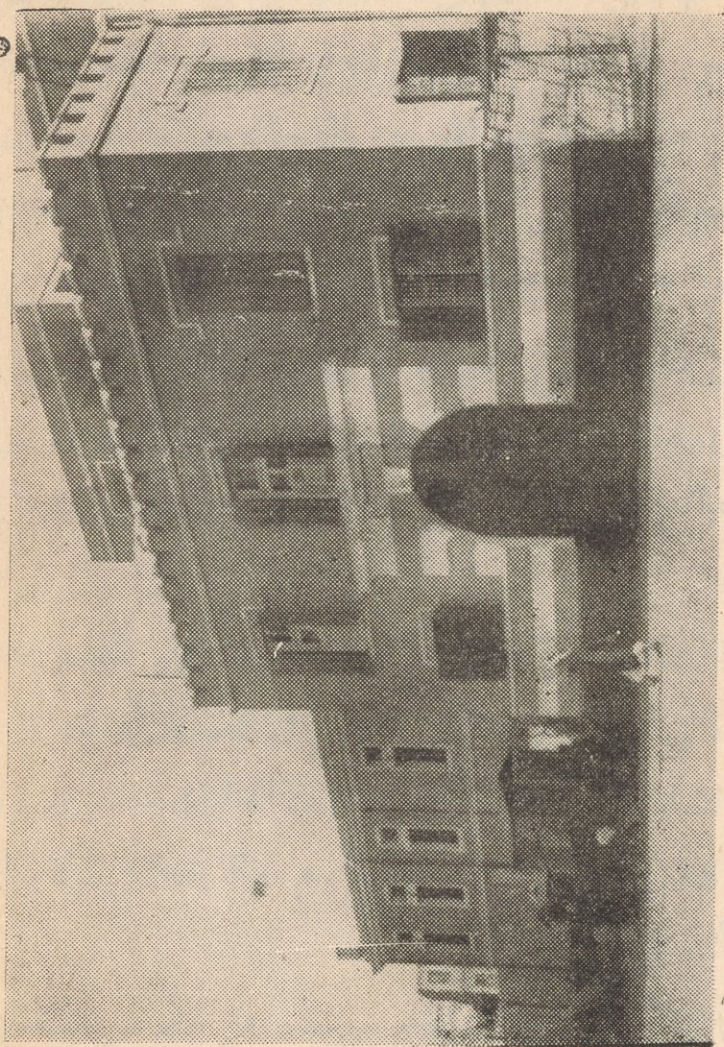
فانطلق كالسهم في ميدان القلعة لا يلوى على شيء ولا يصدق
بالسلامة !

ولكن هل عدل عن الموعد وأقلع عن العناد ؟

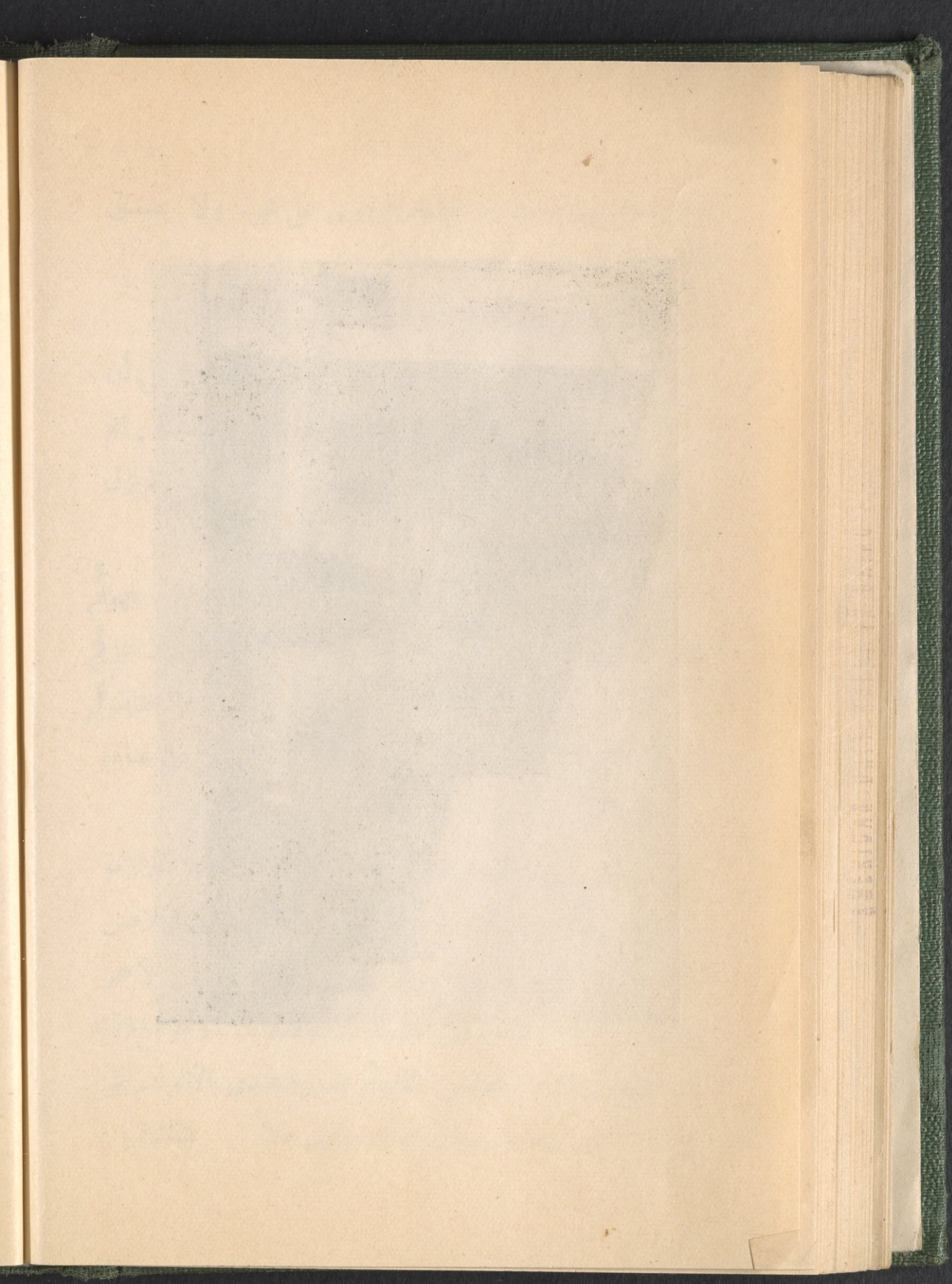
معاذ الله ومعاذ الذكاء... لم يعدل ولم يقلع ولم يزد على أن
يدق الباب في الأيام التالية ويضع الآنية على مقربة منه ، ثم
يرجع هو إلى حيث يضمن النجاة ويأمن الظلمة العتاة ! ولم يزل
كذلك حتى بلغه عن مصداق ما يقول السجانون

وعلى هذا جرى في إحضار الملابس لموعد الحمام ، فهو
لا يحضرها إلا أيام الحمام في البيت ، ولا شأن له بما يقولون عن
مواعيدهم ومواعيد البخار الذي لا يدار في أيام الجمع ولا يختلف
عن الأوقات المرتبة له على حسب الحاجة إليه ، وظل على عناده
حتى أبلغته مواعيد الاستحمام كما أبلغته مواعيد الطعام

ولا تسئل عن المشقة في تعريف الشيخ أحمد بالملابس اللازمة
حين يدعو الأمر إلى التدرج من الملابس الثقيلة إلى الملابس
الخفيفة بين الفصول ، فالتفرقة بين القميص الصوفي الأحمر
والبرتقال والرمادي عنده من المشكلات المعضلات ، وهو مع ذلك
لا يتورع عن طلاء ما يلقاه من تمثال أو صورة عندى بالألوان التي
تروقه كلما تقشرت طبقة منها واحتاجت إلى طلاء... فتلك فنون



الحكومة العراقية



لا يحجم عنها الشيخ أحمد ولا ينتظر إذنى فى عملها ، ولا يحتفل
بالتفكير فيها أقل احتفال ، وإذا ضحك أصدقائى الفنانون صانعو
تلك الصور أو تلك التماثيل من فنه فى التلوين والتظليل فماذا
يعنيه من ضحك الناس المغرمين بالضحك من كل شئ ؟ لقد
تعود منهم أن يضحكوا حين يصنع الشئ وحين يصنع نقيضه ،
فليضحكوا ما بدا لهم ماداموا لا يقطبون ولا يغضبون

لكن بدائع الشيخ أحمد ليست كلها مضحكة ولا كلها سليمة ،
فربما كان منها ما يميت وما يغيبظ . وقد جاد علينا بواحدة من
هذه البدائع القاتلة فى السجن ثم اكتفى بها ولم يشفعها بشانية ،
ولله الحمد

فأنا أتداوى من عوارض البرد بالماء الساخن أنغمس فيه
بضع دقائق ثم أسرع إلى لبس البرنس فى الصيف أو البرنسين
معاً فى الشتاء بغير ونا ، فاذا أبطأت سامت العاقبة وجنيت جريرة
هذا الابطاء زكاًماً قد يلزمنى الأسابيع ، وقد يتجاوز الزكام إلى
ما هو أشد وأقسى

فلما كان يوم من أيام الحمام خرجت من الحوض الساخن
والتبست البرنسين والملابس فاذا الشيخ أحمد قد نسى أن يصلح
بعض أكمامها وتركها مقلوبة تارة ومعدولة تارة أخرى ، وهذه

هفوة صغيرة ولكنها كافية...!! لأنني شعرت بالقشعريرة تسرى
في أوصال جسمي ورعدة البرد تملأني ، فأسرعت إلى الحوض
الساخن مرة ثانية حتى عاودني الدفء. وشملتني الحرارة ، ولكن
الوقت الذي قضيته في الحوض كان أطول مما يطاق ، فلم ألبث
أن خرجت منه حتى غشيني الاغماء ، ولو أدركني في الماء قبيل
ذلك بلمحة عين لكانت هي القاضية

وإن نسية من هذه النسيات التي يتقنها الشيخ أحمد لكافية
لتوديعه مدى الحياة ، لولا أمانة عزيزة تشفع له وإخلاص وثيق
يزكيه ، وطول خدمة مذكورة تكافئ هذه النسيات

التسلية في السجن

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين
والسلام

في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٥
بجانبه في قريتنا
تحت يده
والسلام

لوتمت « تعليمات » السجن بحرفها في معاملتنا نحن المحكوم علينا في قضايا النشر والصحافة ، لكان معنى ذلك أننى قضيت تسعة شهور ضامتاً لا أنبس بكلمة واحدة ، إلا أن تكون هذه الكلمة سؤالاً أو جواباً لموظف من موظفى السجن فى عمل من أعماله الرسمية ثم ألوذ بالصمت « البوذى » الطويل عاكفاً عليه ليلى ونهارى بلا صلاة ولا قربان !

لأن إدارة السجن أوصدت على كل مسجون فى قضية صحفية أو قضية من قضايا النشر باب حجرة منفردة

وأمرت أن ينفرد كل منا فى أوقات الرياضة فلا تتلاقى بمكان واحد ، ولا يمر أحد منا على حجرة الآخر

بل أمرت أن يكون ذهاب كل منا إلى المستشفى لمقابلة الطبيب أو اللجنة الطبية فى موعد غير موعد زملائه

وعلى هذا كنّا فى « سجن انفرادى » كالذى يعاقبون به السجناء الأشقياء ، ونحن لا ندرى ولا إدارة السجن تدرى . وكنا أسوأ حالاً من شرار المجرمين لأنهم يجتمعون فى ساعة الرياضة عشرات عشرات ، ويجتمعون فى المصنع بضع ساعات ، ويجتمعون فى حجرة النوم خمسة خمسة أو عشرة عشرة أو عشرين عشرين حسب اتساع الحجرات

وهذه نقيضة أخرى من نقائص السجن وأعاجيبه ، وهو
كمصر في رأى هيرودوت موطن النقائص والأعاجيب
ومهما يكن من زهادة الانسان في اللغو والكلام ، وفي
إخلاده إلى العزلة والسكون فليس السكوت تسعة شهور بالأمر
المعقول ولا بالأمر الهين ... وأى سكوت ؟ إنه السكوت لغير
عبادة يتعزى العابد بسلامها وثوابها ، وانه السكوت مع الفراغ
من العمل ، ومن النظر إلى الدنيا ، ومن ضروب السلوة جميعها
إلا القراءة ومراقبة النمل على الجدران !

لقد كنا نرى بعض المحبوسين من الموسرين القادرين على
استئجار الحجرات المفروشة أثناء التحقيق يهجرون تلك
الحجرات لانفرادها وعزلتها ، ليشاركوا مع غيرهم في حجرة
واحدة ينامون فيها على الأرض بغير فراش إلا الحصير من الليف
الخشن ، ويعملون بأيديهم في تنظيف الأرض وغسل الآنية كل
صباح ويؤثرون ذلك على السرير وحشايا القطن ، والراحة من
الخدمة وامتهان النفس في الغسل والتنظيف ، لأنهم يستطيعون
الكلام هنا بغير عقوبة ، ولكنهم يعاقبون اذا سمعهم الحارس
يكلمون جارا لهم من النافذه أو فتحات الباب حين ينفردون في
حجرة معزولة

وقد كنت أنا من المشهود لهم « بحسن السير والسلوك » عند
السجانين ورؤسائهم الموقرين ؟ لأنني كنت لا أهتم بفتح باب
الحجرة ، ولا أسعى للتحديث الى أحد ، ولا أحاول الخروج أو
المرور من غير مكاني المألوف ، ومع هذا تخطى إدارة السجن اذا هي
ظنت أنني أستحق شهادتها بحسن السير والسلوك كل الاستحقاق .
فلو أنني حوسبت بالعدل والقسطاس المستقيم في عرف النظام
الأعوج ، لخسرت كثيراً من الدرجات في تلك الشهادة
فالحق أننا نتكلم ونتلاقى وتتسامع الأخبار على قصد
وعلى غير قصد ، وإن كان ذلك كله فلتات لا تخفف من قيود
« السجن الانفرادي » المفروض علينا إلا بمقدار يسير
أما شرار المجرمين فقد كان مباحاً لهم كل ما هو محرم علينا ...
فما هو إلا أن توصل عليهم الأبواب نهاراً ، حتى يتجمعوا للعب
بـ « الدومينة » أو بـ « النرد » أو ما شاءوا من الألعاب
وضروب التسلية . وقد يسأل سائل : « ومن أين لهم حجارة
النرد أو الدومينة ؟ أتراهم يهربونها من خارج السجن كما يهربون
التبغ والنقود ؟ » ألا فليعلم هذا السائل اذن أنه يسمى الظن
بـ « براعة السجناء » ، فانهم قد برعوا في صناعة هذه الحجارة داخل
السجن حتى صنعوها من لباب الخبز الساخن وهم في حاجة اليه

فأثبتوا بذلك أنهم يعرفون كيف يجدّون إذا هموا باللعب أو مخالفة النظام ، وأثبتوا بذلك أيضاً أن اللعب أحب إلى الإنسان من الطعام

وليس يحلو اللعب للسجناء بغير رهان . فإذا كان نقد أو تبغ أو طعام ممنوع فذاك هو الرهان المفضل على هذا الترتيب ، وأن لم يكن واحد منها فلا رهان بعد هذه المتع المشتهاة أحلى وأشهى من الضرب الوجيع والمباينة في الإيذاء اظهاراً للقوة والتذاذاً بالسطوة ، وربما كانت لذة الضرب الكبرى عند السجين أنه يمنحه القدرة على التغلب والتعذيب وتوقيع العقاب ، في مكان لا يزال فيه مغلوباً معذباً خاضعاً للعقاب .

أما الليل فالظلام يحول دون اللعب بالرد والدومينة ، ولكنه لا يحول دون اللغظ والغناء والعريضة وكل ما يحلوا لسكان الحجرة ماداموا في أمان من أعين الحراس وآذانهم ، وهم على الأكثر في أمان !

وكانت تسليتي بالليل قبل أن تسمح إدارة السجن بادخال النور الكهربائي إلى حجرتي أن أستمع إلى لغظ اللاعطين حتى يهدأ : فأسمع مصارحات السجناء بأسرار حوادثهم ومراوغاتهم تارة ، وأسمعهم يمثلون روايات التهريب وإخفاء

الممنوعات تارة أخرى ، وربما كان من هذه الروايات المضحك والفاجع والمقزز والمشير للسخط والنقمة ، وربما كان منها ما يستمر ليلة كاملة ويشارك في تمثيله حشرات ثلاث بعضها فوق بعض ، وكل منها في دور مختلف من أدوار العنبر . وأصلح هذه الروايات للتمثيل فيما أذكر رواية اشترك فيها أربعة أطفال ، ومهرب كبير من عتاة المجرمين ، وسجين من سجناء المحاكم المختلطة . فأما الأطفال — وهكذا يسمونهم في السجن وإن بلغوا الثامنة عشرة — فكانوا في الدور السادس أى الدور الأوسط ، وأما المهرب فكان في الدور السابع وهو أعلى من السادس ، وأما سجين المحكمة المختلطة فكان إلى جانبي في الدور الأرضي أى الدور الخامس الممتاز بالأطعمة الخاصة وشئ من التيسير في المعيشة .

وبدأت الرواية باتفاق بين المهرب والأطفال من جهة ، وبين الأطفال وسجين المحكمة المختلطة من جهة أخرى ، وفحوى الاتفاق أن يدلى الأطفال بخيط من خيوط الصوف التي ينزعونها من غطاءهم أحيانا لتوصيل الرسائل والمهربات ، فيربط فيه السجين في الدور الأرضي صرة صغيرة تحتوى قطعتين من ذوات القرشين وقليلًا من الحلوى ، وعندما تصل هذه الصرة إلى الأطفال ينادون المهرب فيسقط إليهم خيطاً قد ربط فيه

الصرة التي تحتوى لفائف التبغ المطلوبة ، وإنما وثق الطرفان بأمانة الاطفال فى هذه الرسالة لأنهم أطفال مخلصون لا يعرفون الخبائثة ، ولا بد من توسيطهم بين البائع والشارى على كل حال لأنهم متوسطون بينهما بحكم المكان الذى لا يتحول . فاطمان البائع والشارى الى الصفقة وبات كل منهما يبنى نفسه بليلة سعيدة : فالبائع يتلذذ شوقاً الى الحلوى ويتربح ثمن البضاعة التى يعانى ما يعانى فى سبيل تهريبها واخفائها ، والشارى يحلم بالتدخين ويعد الأنفاس فى انتظار أنفاسه الهنيئة ! أما بقية الممثلين فى الرواية — وهم الاطفال — فلم يكونوا عند حسن الظن أو عند سوء الظن بهم فهما فى هذه الحالة سواء ، ولكنهم أضمرُوا النية على شىء آخر وقرروا فيما بينهم أن ينوبوا عن الطرفين البائع والشارى فى الاستمتاع بالتدخين والحلوى والقروش جميعاً . . . وهكذا كان .

فلما أسقطوا الخيط إلى سجين المحكمة المختلطة المجاور لى لم يقصر الرجل فى ربط الصرة ، وهمس لهم أن يرفعوها فرفعوها وهم يغالبون الضحك ، والرجل لا يستريب بضحكهم ولا يرى فيه إلا أنه من مرح الاطفال حين يلهون بأمثال هذه الألاعيب . . . ثم لبث الاطفال يضحكون هنيئة وانتظروا ريثما يتحققون من محصول الصرة ويطمئنون إلى نجاح الحيلة من ناحية الشارى ،

ثم نادوا المهرب فما توانى دون أن أجاب على الفور باسقاط
 الجبل وفيه البضاعة النفيسة ، ثم مضت لحظة . كنت أسمع في
 خلالها همس الاطفال وضحكاتهم المخنوقة وشجارهم الأخوى
 على تقسيم الغنيمة فيما يظهر ، فلما لم تصل اللفائف إلى سجين
 المحكمة المختلطة ولم تصل القروش والحلوى إلى المهرب ، ناديا
 على الاطفال في وقت واحد وهما حذران متوجسان ، ولم يخطر
 لهما أول وهلة أنهم قد غدروا بهما ، وإنما خطر لكل منهما أن
 يرتاب في صاحبه ويسأله على الرغم مما في رفع الصوت من
 المجازفة والتعرض للعقوبة والمصادرة ، فاذا بكل منهما يقسم
 أغاظ الأيمان على بره بوعده ويحرق الارم غيظا من أولئك
 الصبية الملاعين !! وأكدهما الصدق فيما يقولان سكوت الصبية
 الملاعين وانفجارهم بالضحك كلما غلبهم وأعياهم أن يغالبوه ،
 وانقلب الندامشتما ووعيدا والخافا شديدا . ولا فائدة لكل
 أولئك ولا جواب غير الهمس فالضحك المخنوق فالقهقهة الداوية
 من حين إلى حين ، فلم يبق للرجلين إلا أن يتجرعا غصة اليأس
 ويستعيضوا الله فيما كانا يحلمان به من لذة وهناء ، وسكتا وهما
 كظيمان مقهوران .

لكن الرواية لم تنته عند هذه النهاية ، وإنما انقضت فترة

قضاها الأطفال في سرور وفرح بالغنيمة ونجاح الألعوبة ، ثم
انبعث صوت جاد أو متكلف للجد من حجرتهم ينادى المهرب
مرة بعد مرة ، تخف المهرب الى الجواب ، ووثب الى النافذة كأنه
حسب أنهم ندموا على غدرهم وفكروا في رد الأمانة اليه . فقال
متودداً . « ما بالك يا فلان ؟ لم كنت لا تجيب ؟ » فضحك الغلام
الخبيث وقال : « كنت نائماً » . فارسل المهرب عليه عشرات
من التحيات لأبيه وأمه وصاح به : « أو تنام في غمضة عين ؟
ومن ذا الذي كان يضحك ويقهقه منذ هنيهة ؟ » ثم أخذ في
ملاطفته وعاد يسأله : « ماذا تريد ؟ هل أسقط لك الخيط ؟
قال الغلام الخبيث : « نعم .. وتسقط معه عينا » أي كبريتا
باصطلاح السجناء ... فادرك المهرب أنهم يعبثون به ويكيدونه !
وقد كانوا حقاً يكيدونه ويبالغون في المكايده ، لأنهم كانوا قد
دخلوا اللفائف جميعاً ، وأشعلوها بالشرار الذي ينقدح في خيط
الصوف من ضرب الأرض بصفيحة الرقم المعروفة هناك
« بالدوسيه » . فلم تكن بهم حاجة الى الكبريت ولا حاجة إلى
النداء على المهرب من أجله ، ولكنهم حرصوا على الاستمتاع
باللعبة الى آخرها ، وتركوا صاحبهم يفرغ ما عنده من السباب
والتهديد ، وهم يمزحون ويمزحون .

وتلك رواية من روايات التهريب التامة لم يقاطعها أحد
دون تمامها الى الفصل الأخير منها كما يحدث أحيانا في أمثالها ،
ومسرح السجن غير ضنين باشتات من هذه الروايات التي
نشهدها نحن ليلة ويشهدها غيرنا ليلة أخرى ، ولاكنها لا تنقطع
عن شهودها المتفرقين في معظم لياليه .

وتيسرت لي القراءة طرفا من الليل بعد دخول النور في الحجرة
فكنت اقرأ حتى أمل الصفحات فألهو بمراقبة النمل على الجدران
ويطيب لي هذا النوع من اللهو لأنني استأنف به أياما من الطفولة
كنت أقضيها في هذه المراقبة . وأكاد أصدق يومئذ أنني أعالج
ضرباً من الطلاس التي كان يعرفها سليمان عليه السلام
وذاك أن تلميذاً من أصحابنا في المدرسة كان يقول لنا إنه
يحفظ قسماً يتلوه على النمل ويرسم له خطأ فلا يتعداه . . . ومن
عصى القسم وحاول تعدية سقط وحلت به لعنة سليمان
واحتلنا على صاحبنا التلميذ حتى باح لنا بذلك القسم ، فاذا
هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضي . فتحصل
المعجزة وقد رأيناها فعلاً يحز للنمل خطأ على
الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط أو يسقط دونه ،

وجربنا نحن القسم فصحت التجربة ، وأيقنا برهة أننا نملك سرّاً
من أسرار السحر المتصرف في خالق من خلّاق الله . حتى خطر
لنا يوماً أن نرسم الخط ولا نتلو القسم ، فما راعنا إلا أن تصح
التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر
ولكننا أسفنا على السحر الذي فقدناه !

ومن ذلك اليوم ونحن نمتحن النمل بالخطوط لنعرف كيف
« يفكر » في اجتياز العقبات واللف حول الدوائر والمربعات ،
وكنا نحيطه بدائرة مفتوحة ودائرة ثانية مفتوحة من جانب آخر
ونحيط الدائرة الثانية بدائرة ثالثة لا فتحة فيها ، ونراقب كيف
يهتدى إلى الفتحات في خروجه حتى يصل إلى الدائرة الكبيرة
وكيف يهتدى إلى هذه الفتحات بعينها حين يرتد عن الدائرة
المقفلة ، ونكرر هذه التجربة عشرات المرات ، فلا نرى نملة
واحدة « تفكر » في الرجوع إلى طريق الفتحة التي تركتها منذ
هنيئة ، فانتهى بنا الأمر إلى أن فقدنا إعجابنا بذلك النمل الموصوف
كما فقدنا السحر أو الوهم الذي سلطنا على هذه المخلوقات ...
وساءنا أن نعلم أن هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء إنما تعمل بغير
« تفكير » ! كأنها من الأدميين !

وكانت التسلية بمراقبة الادميين ميسرة كالتسلية بمراقبة النمل على الجدران ، ولكن أين هم الادميون الذين يستحقون المراقبة داخل السجون ؟

إنهم أرقام كما وسمتهم ادارة السجن ولم تظلمهم كثيراً في هذه السمة ... فقد يمر بك المئات بعد المئات من تلك الأرقام دون أن يبرز من بينها رقم واحد بشخصية إنسانية وملاح نفسية ، لأن « التفاهة » لعنة غالبية على مجرمي « سجن مصر » إلا النادر الذي لا يقاس عليه ، ومن كان منهم ذا « شخصية وملاح نفسية » فالأغلب أن يجيئه ذلك من طريق الجنون أو الشذوذ النافر ، خلافا لسجناء طرة وأبي زعبل الذين يجتازون بسجن مصر في انتظار الافراج بعد زمن قليل ، فإن « الشخصيات » بين أصحاب الجرائم الكبيرة أكثر عددا من « شخصيات » السرقة الخسيسة والعدوان الوضع ، وقد رأيت من هؤلاء وهؤلاء نماذج قليلة سأرجع الى الكلام عنها في بعض هذه الفصول

على أن الانسان يراقب الناس كما يراقب جميع الأشياء داخل السجن وهو « بنصف نفس » كما نقول في أحاديثنا العادية ، أو يراقبهم وهو ينوي التأجيل كمن يدخر الزاد المستطاب الساعة في المستقبل غير الساعة التي هو فيها ، فينظر اليهم وكأنما

بينه وبينهم مسافة أشهر وأيام ، ويمتلىء بالمشاهد والتجارب وكأنه
الجمال في الصحراء يخزن الماء في جوفه حتى يشربه مرة أخرى
الشرب الذي ينتفع به ويشعر برية ، وربما ازدحم وعيه الباطن
بالتجارب كأقوى وأثبت ما تكون التجربة ، ولكن وعيه
الظاهر لن يبرح كالجاهل أو المتجاهل الذي لم يسمع إلا بنصف
الخبر ولم يشارف التجربة إلا من مسافة قصية

الزيارة أو برج بابل

الحمد لله الذي جعل في كل شيء
دلالة على قدرته وقوته
وأنه لا اله الا هو
العليم الغني
الذي لا يلهي عنه شيء
والذي لا يضره شيء
والذي لا يموت
والذي لا يولد
والذي لا يتغير
والذي لا يحد
والذي لا يوصف
والذي لا يحصى
والذي لا ينفك
والذي لا يفتر
والذي لا يمل
والذي لا يئس
والذي لا يفر
والذي لا يهرب
والذي لا ينجس
والذي لا يذوق
والذي لا يشبع
والذي لا يملأ
والذي لا يثقل
والذي لا يثقل
والذي لا يثقل

بسم الله الرحمن الرحيم

كان التعجب صعباً على آبائنا الأولين على ما يظهر ، لأنهم
حصروا عجائب هذه الدنيا في سبع لا أكثر ، وحسبوا من
هذه العجائب « برج بابل » الذي كان سكانه لا يتفاهمون لأنهم
يتكلمون بلغات كثيرة

وكل بيت على الأرض هو « برج بابل » عجيب يأوى
الناس منه إلى مكان واحد ، ولا يتفاهمون فيما بينهم وان
تكلموا بلغة واحدة . لأنهم يفترقون في ألوان الحياة أبعد
ما يختلف إنسان من إنسان : بين امرأة ورجل ، وشيخ وطفل ،
ومهموم ولاعب ، وقديم وحديث ، ولا توجد أسباب
للافتراق بين عقل وعقل وشعور وشعور أبعد ولا أوسع من
هذه الأسباب التي تجتمع في بيت واحد

كل بيت هو « برج بابل » لا يحتاج الى أكثر من « قاموس
واحد » ليصبح أعجوبة من تلك الأعاجيب التي أحصاها
آباؤنا الأقدمون على أصابع يد واحدة وأصبعين اثنين من اليد
الثانية !

ولكني أحسب أن برج بابل يحتاج الى صورة هزلية تمثله
كما تمثل بعض الناس في الصور الهزلية بأنف أطول من أنوفهم

الطويلة ، أو رجل أقصر من أرجلهم القصيرة ، كلما تعمدا
المبالغة التي تعيننا على إبراز الحقيقة
ولا أحسب أن فنانا يجد للبرج الدائر صورة هزلية
أظرف وأصدق من ذلك المكان المعروف في كل سجن بقفص
« الزيارة »

لأنه المكان الذي يتكلم فيه الناس بلغة واحدة
ويتكلمون بأعلى ما في وسعهم من زعيق وصرخ
وتصغى إليهم على مسافة ثلاثة أشبار فلا تفهم ما تسمع
ولا هم يفهمون ما يسمعون

وثق أنهم لا يتكلمون في الفلسفة ، وما أنت في ذلك بحاجة
إلى توكيد

وثق أنهم لا يصطنعون الألغاز والمعميات في التعبير كما
يصطنعها المتخاطبون أحيانا بالأصفار والرموز
ولاكنهم يتكلمون في أبسط الأمور ، ويجهدون غاية الجهد
في التوضيح والانصات

ومع ذلك كله لا يتفاهمون بالكلمات كما يتفاهمون بالظنون
والاشارات

وإذا شاء لك حسن الحظ. — أو سوء الحظ — مرة واحدة

أن تشهد قفص الزيارة عرفت سر هذه العجيبة ، وعرفت أنها
كسائر الأسرار من أبسط الأشياء ، لأنها الشيء الذي لا يكون
غيره ، وهكذا ينبغي أن يكون

أربعة أقفاص يقابلها من الجانب الآخر أربعة أقفاص مثلها
على مسافة أشبار ، وفي كل قفص رجل أو اثنان أو ثلاثة ،
وأمامهم جميعاً دقائق معدودات يقولون فيها كل ما عدوه للقول
في شهور أو أسابيع ، ويجب كل منهم أن يقول كل ما عنده وأن
يسبق الآخر إلى إفراغ ما في جعبته ، ويتواصى كل منهم قبل
دخوله الى القفص أن يخفض صوته ولا يغطي على صوت جاره
ولكنهم لا يبدأون حتى يختلط بينهم الكلام وتأخذهم
العجلة فاذا هم من حيث لا يشعرون قد انتقلوا من الهمس إلى
زعيق المصابين بالصمم المغلق ، وإذا بالسامع من وراء الجدار
يسمع سؤالاً عن الزرع وجواباً عن السوق وكلمة عن الأبناء
والبنات وكلمة عن الماشية والأنعام ، ولا يدرى ماذا جواب
ماذا ولا هم يدرّون من السائل ومن المجيب ، إلا أن يرى
المتحدثين رأى العين فيفهم بالظن من ملاحظهم وإشاراتهم
ما يتخاذل دونه الكلام... أو أكثر الكلام

وهذه هي الزيارة التي يتشوف إليها المسجون ويحسب

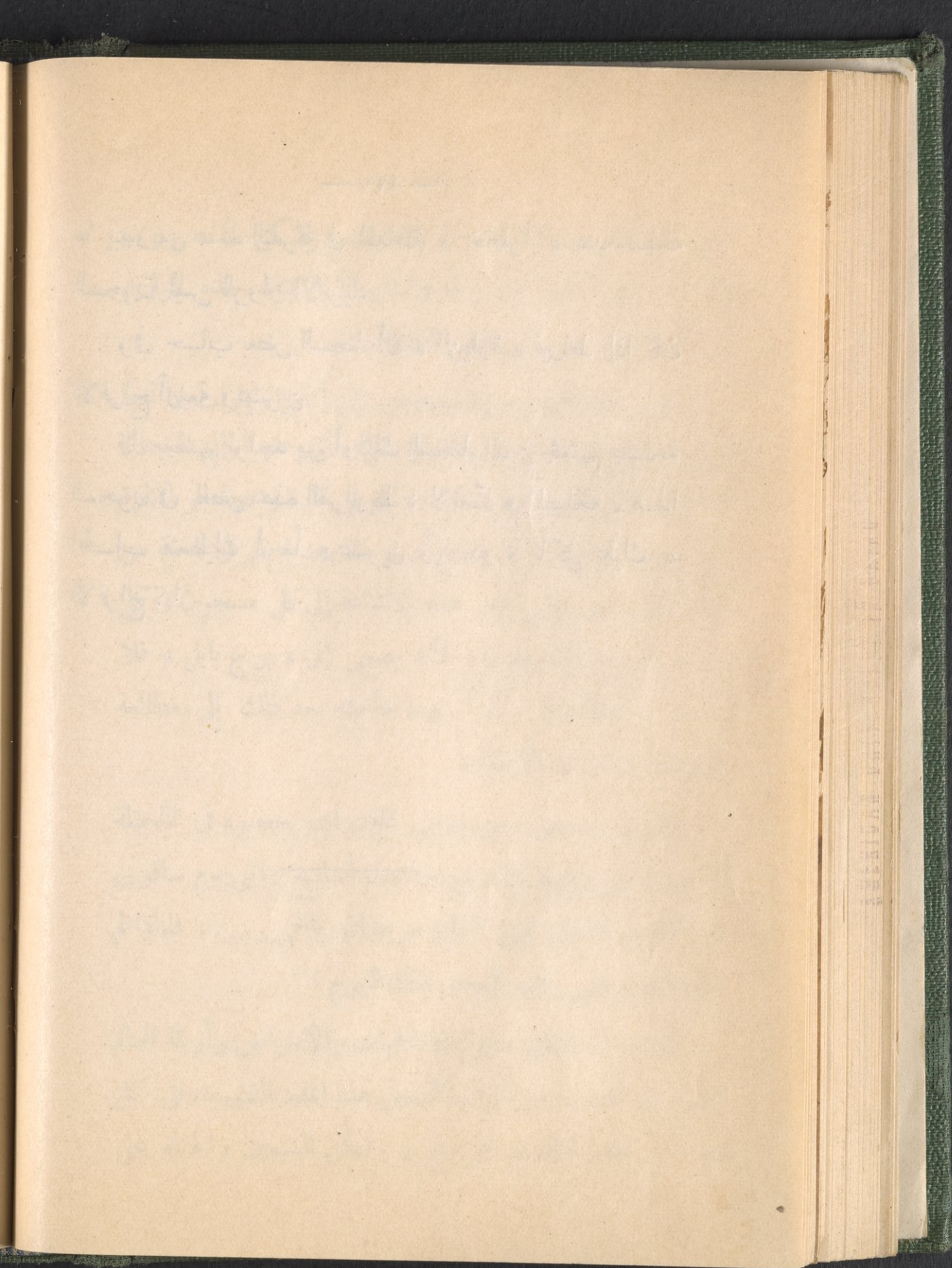
دوره فيها باليوم والساعة ، لا لأنه يسمع ولكن لأنه يرى ،
ولا لأنه يعنى كثيراً بمن يراه ولكن لأنه ينفذ بهذه الرؤية
إلى العالم الخارجى ولو بعض النفاذ

وعلى هذا الشوق من المسجونين إلى أيام الزيارات لا تجد
« مصلحة السجون » سريعة إلى شيء كسرعتها إلى انتحال
الأعذار لإلغاء الزيارات عامة بحجة المرض تارة وبحجة الوباء تارة
أخرى ... فما هو إلا أن يشاع أن مرضاً معدياً ظهر فى ناحية من
أنحاء القطر حتى ينتهى خبر هذه الاشاعة إلى كل مسجون فى كل
زاوية من زوايا السجون ، لأنه يصغى إلى « برج بابل » فلا
يسمع فيه لغطا ولا ركزاً ، وما حاجته بعد ذلك إلى مطالعة
الصحف ونشرات الأطباء !

قال لى مسجون من مدمنى المخدرات حجبوه فى اللحظة
الآخيرة عن زيارة كان يتوقعها منذ أسابيع : انتى يوم ساقونى
إلى السجن كان فى بيتى اثنان مريضان بالحمى فلماذا لم
يغلقوا فى وجهى باب السجن ذلك اليوم ؟

قلت : انه لمنطق سليم ! فان الحيات والأمراض وأوبئة العالم
بأسره لن تحجب عن أبواب السجن هذا المدد الذى يتدفق كل
يوم من خضم المجتمع الواسع ، ولكن للتهمين والجناة على

ما يبدو من هذه التفرقة في المعاملة « خاطراً » عند مصلحة
السجون ليس للزوار الأبرياء
وفي حساب بعض السجناء أن « الزيارة » قيراط إذا كان
الافراج أربعة وعشرين
قال بعضهم لواحد من أولئك السجناء الذين فجعتهم مصلحة
السجون في بعض هذه القرارات : لا تعلم « المصلحة » هذا
الحساب فتعطيك أربعاً وعشرين زيارة و « تأكل عليك »
الافراج ؟ !



الطعام ومطالب الجسد

سید ابوالحسن و اولاد

أيسر تجربة للمسائل العامة خليقة أن تؤكد لنا صحة هذه الحقيقة المأثورة ، وهي أن المبدأ لذاته ليس بالمهم ، أو ليس بالشئ الذى يستحق الجانب الأكبر من الاهتمام والدراسة ، وإنما المهم قبل كل مهم هو تطبيق المبادئ وتنفيذها ، فإن التطبيق فى أيدي المصلحين قد يصلح المبادئ الفاسدة ويقوم أعوجاجها ، كما أنه قد يفسد المبادئ الصالحة ويعكس مقاصدها إذا هو جرى على أيدي العجزة وأهل الفساد

فليس الإصلاح اذن منوطا بالقاعدة والنظام وإنما هو منوط بضمان التطبيق ، وحسن الرقابة على التنفيذ

وهذه الحقيقة تسرى على مسألة الطعام فى السجون أشد من سريانها على مسائل الدواوين الأخرى ، لأن الاغراء حاضر والشكوى عسيرة وتحقيقها أعسر ، وخوف السجناء من الشهادة الجريئة خوف غير مستغرب من أناس مهددين مملوكين فى قبضة الحراس والرقباء ، موسومين بالكذب والخداع عند المشرفين عليهم والموكلين بشؤونهم ، موصوفين بضعف الخلق ، وضعف النخوة ، وضعف الغيرة على الحق ، وضعف الابانة عنه ، فاذا هم أحدهم بالشكاية ثناه ضعفه فأحجم ، وإذا ألح عليه الضيم فأقدم بعد وجل وتردد لم يستطع الافصاح ولا إقامة الدليل

ولم يجد من العطف والتشجيع ما يغنيه عن حسن البيان وقدرة
الاثبات ، وقد يخذله زملاؤه طلباً للسلامة وإيثاراً للزلفي
ومرضاة الحراس والرقباء ، فالحاجة الى مراقبة التنفيذ في مثل
هذه الأحوال أشد وألزم ، والثقة بالمبادئ والنظم أقل ثقة تعهد
في مبدأ أو نظام

ولو سئلت رأيي في تعديل طعام السجن من حيث المبدأ
والنظام لما اقترحت من التعديل غير القليل : زيادة جزء من المواد
السكرية وجزء من الفاكهة والسماح في الشتاء بالمشروبات الساخنة ،
وما عدا ذلك فهو غذاء صالح كما هو قائم الآن ، لأنه يقوم على
البقول عامة الأسبوع ، والخضر النيئة مرتين في الأسبوع ،
وتستبدل الخضر المطبوخة مع اللحم بالبقول مرة أو مرتين
على أقصى تقدير ، وهذا على قلته كاف لحاجة الجسم ناف للضرر
الذي يصيب الانسان من نقص بعض الأصناف

لكن الاهتمام جد الاهتمام انما يكون بالرقابة على تنفيذ
هذا النظام ، فان العدس قد يكون صحيحاً وقد يكون منهوكاً
بالسوس ، والخضر النيئة قد تكون ذابلة هزيلة وقد تكون
ناضرة جزيلة ، واللحم قد يكون لحم حيوان شائع أعجف
سقيم ، وقد يكون لحم حيوان فتي فاره سليم ، والسمن قد يكون

مغشوشا مخلوطا وقد يكون من اللبن النقي الممخوض ، والخبز
قد يصنع من الدقيق النظيف وقد يصنع من الدقيق المشوب
بالحصى والتراب ، والفرق كل الفرق ما بين عدس وعدس
وخضر وخضر ، ولحم ولحم ، وسمن وسمن ، وخبز وخبز ،
وإن كانت كلها فى العنوان سواء

فالرقابة هنا هى أس النظام ، والحذر من العبث والاهمال
هو أولى الأمور باليقظة والانتباه

كذلك المرضى المستحقون للبر والرحمة قد يصلون إلى
مكانهم من المستشفى بغير عناء ولا كلفة إذا حسنت الرقابة
واستقام الاشراف ، وقد يجرم هذا الحظ من هو أهله ويعطاه
من هو غير أهله إذا التوت الأمور واستفاض الخلل والاهمال
ومن الحق علىّ أن أقرر هنا أنى شكوت مرة من بعض
الخلل الخطير فلم ينقض يوم على الشكوى حتى أزيلت أسبابها
وخيل بين المسى وما يسىء ، ومن الحق علىّ كذلك أن أشهد
لكثير من الأطباء والموظفين فى سجن مصر بالجد والأمانة
والاخلاص وبذل الوسع فى تخفيف الشقاء وتلطيف الآلام ،
فاذا قضيت هذا الحق وهو فرض لا أنساه فمن حق الضعفاء علىّ
أن لا أنسى حاجتهم إلى الرقابة الناجمة ، ولا أنسى سهولة

الاجحاف بهم والقسوة عليهم ، اذا آلت الأمور إلى غير القادرين
وغير المخلصين .

على أن مسألة الطعام في السجن — سواء صلح نظامه أو
افتقر إلى التعديل والتنقيح — مسألة لم تغب عن أذهان الحاكمين
ولم يغفلوا عن تقريرها بالمبدأ والقاعدة تارة وتعهدها بالرقابة
والاستطلاع تارة أخرى ، ولكن العجيب كل العجب أنهم قد
غفلوا وتغافلوا جميعاً في مصر وفي معظم بلاد العالم عن وظيفة
جسدية ليست في صميمها بأقل من وظيفة التغذية وقد ترجح
عليها بما لها من الأثر السريع في الأخلاق والآداب ، ونعني
بها وظيفة الغريزة الجنسية وحاجة الرجل إلى المرأة في الشهور
أو السنين الطوال التي يقضيها بمعزل عن النساء ، فهل في وسع
طبيب أن يحيز تعطيل هذه الوظيفة في جسد صحيح ميسور
الغذاء ؟ وهل في وسع حاكم أن يزعم أن السكوت عنها أو اسبال
الستار عليها كاف لإغائها وكفيل بمحوها وإخفائها ؟ وهل في
وسع الحاكم والطبيب أن يرضيا عن شذوذها وتحولها كما تشذ
وتتحول في مئات من الأحوال ينتهي خبرها إلى الحراس

والرقباء ، وفي ألوف من الأحوال لا ينتهى خبرها إليهم وإن كانت فى حكم المعلوم المفهوم ؟

ليس السجناء نساكا ولا رهبانا فيطالبوا بزهد النساء والرهبان ، وليس من الصلاح لهم أن يطالبوا بذلك وهم لا يؤمنون بنية الزهد ولا يستمرئون سلوى العفاف ، ولا يقصدون النسك ولا الرهبانية فمن أعجب الدلائل على كسل العقل الانسانى واعتياده أن يحل المشكلات بالأعراض والتغابى هذه الغفلة السادرة عن المسألة الجنسية فى السجن ، وهى مشكلة لا تحل بالسكوت ولا تحل بالشذوذ ولا بد لها من حل ، وليس من يتصدى لحلها بين الرؤساء المسؤولين كأنما هى شىء غير موجود !

حدث فى بعض الليالى أن استيقظ السجن كله على ضجة هائلة لا يتميز منها صوت بين صليل عشرات من الجرادل والكيزان تتساقط على الأرض أو تصطدم بالجدران ، ويتخلل ذلك صياح المجروحين وعويل المضروبين وزجرة كزجرة الوحوش وضحك كضحك المخبولين ، ثم جاء ضابط السجن وفتح الحجر التى انبعثت منها هذه الضجة فاذا بالذين فيها وعدتهم نحو الثلاثين ممن يسمونهم بالأحداث عرايا متهتكون وإذا

بالحادث كله مسألة من مسائل الشذوذ

ويتكرر هذا الحادث وإن لم تتكرر هذه الضجة ، ويبطل الحياء منه لكثرة التكرار والابتدال فيرويه بعض المتهمين على مسمع من السجناء والحراس بصفقة كأنها صفقة الحيوان ، ومنهم من كان يساق إلى الجلد فينعى على زميله أنه خائن وأنه حانث في يمينه . . . ولا يحسب أن في الأمر غير ذلك ما يشين ، وربما وقعت هذه الحوادث وفي الحجرة أكثر من خمسة أو ستة ، لأن الحياء منها يوشك أن يكون في حكم المعدوم

ولست أذكر أنني قرأت كتابا واحدا عن ذكريات السجن إلا وفيه إشارة إلى الشذوذ الذي يدفع إليه كبت الغريزة الجنسية ، فهو مذكور في كتاب دستيفسكي « منزل الأموات » وفي كتاب مكارتنى Macrtney « الحيطان لها أفواه » . وفي كتاب الدكتور هامبلين سميت Homblin Smith عن حياة السجن . . . وفي كتاب بلير بيلز Blair Niles عن المسجونين بجزائر الشيطان ، وفي كتاب جوزيف فيشمان Fishman عن المسألة الجنسية في السجن ، وفي كتاب فكتور نلسون عن أيام السجن ولياليه ، وفي الكتب والمجلات التي عقت على بعض حوادث الإصلاحات وسجن جوليت joliet بالولايات المتحدة ، وهي كتب تصف سجون آسيا وأوربا وأفريقيا

وأمرىكا ولا تقتصر على بيئة واحدة ولا على زمن واحد، فالآفة إذن آفة
السجن حيث كان ، والأمر أعم من أن يعالج بالمدارة والنسيان
وقد عولجت هذه الآفة بأساليب مختلفة في أمم شتى ،
فسمحت حكومة الفيلبين للسجين بعد قضاء فترة يسيرة أن ينتقل
إلى مستعمرة تأديبية يتصل فيها بأهله وذويه

وقررت حكومة سلفادور أن تسمح لمن تشاء من زوجات
السجناء أن تزوره زيارات أسبوعية في حجرات مستقلة

واعتمدت الولاياتان الأمريكيتان ألاباما وميسيسيبي
Alabama and Mississippi نظام الأجازات بين حين وحين
لمن يحسن سلوكه من السجناء ، ولم يختل في ملاحظة الموعد
المضروب لانتها الأجازة غير سجين واحد من مئات يقضون
أجازاتهم كل عام

وأضافت ولاية ميسيسيبي إلى ذلك أنها تمنح السجناء فترة
تجريبية من شهر إلى ستة أشهر إذا استقام في أثنائها واهتدى
إلى عمل صالح يرتزق منه مدت له التجربة سنة فسنة إلى آخر
المدة المحكوم بها ، وأعفى من العقوبة

أما في روسيا فقد عولجت هذه الآفة بطريقة لا يمكن
أن تقرها حكومة تؤمن بالدين ونظام الاجتماع الذي خرج

عليه الشيوعيون ... قال الصحفي المشهور نيجلي فارسون
Negly Farson في كتابه « طريق الفضولى » :

« أخبروني فى الاصلاحية التى بظاهر كيف أن تجربة
السماح للسجناء — ومعظمهم من القتلة — بالذهاب إلى قراهم
إبان الحصاد تجرى على ما يرام ، لأنهم يعودون بلا استثناء .
وأمامهم تجربة أخرى وهى أن يأذنوا للسجين العامل فى الحقول
أن يملأ على الحارس أسماء صديقاته البنات فى كيف ، فيجيز
الحارس واحدة منهن إلى حيث تلقى السجين ، وتدار الظهور
وتغمض العيون عند ما يوغل الفتى وفتاته فى الغاب »

ويقال إنهم يعتمدون على هذه التجربة فى نحو الشذوذ
الجنسى من السجون . فإن بقى منه أثر فكالذى يبقى فى المجتمع
الطليق بين المطبوعين عليه

إلا أن الروسين المحدثين قد عالجوا شذوذاً بشذوذ ، وأدنى
من ذلك إلى العرف والفائدة أن يباح للسجناء الخروج من السجن
فى فترات محدودة ، وأن يعتبر إطلاقهم حينئذ مكافأة لهم على حسن
السلوك ولا سيما فى المسائل الجنسية ، ولا شك أن السجناء
يحتاجون إلى ترك سجونهم فينة بعد فينة لمطالب كثيرة غير هذا
المطلب ، تنفعهم وتنفع ذويهم وقد تخفف أعباء الزيارات عليهم

وعلى إدارات السجون ، ولعل التجربة تنفعهم أيضاً فيما لا يقع
الآن في الحسبان من تقويم خلق وإحياء عبدة وتجديد ثقة
وتشويق الى نعمة الحرية . ومهما يكن في التجربة من حرج
محتمل أو مقطوع به فهو دون الحرج الذي يصيب النفوس
والأبدان من إكراه الغرائز وفرض الحرمان أو الشذوذ على
من لا يحمد ولا يلتغيه .

وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق
وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق
وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق

وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق
وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق
وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق

وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق
وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق
وكانت في ذلك الوقت
في حالة من الضيق

الوقت

تقما

الوقت أعدى أعداء السجين ، فلو اهتدى إلى طريقة يخلص
بها من وقته لاهتدى إلى طريقة يخلص بها من سجنه
الوقت في كل مكان من ذهب كما يقولون . إلا في السجن
وما شابه السجن ، فهو من رصاص إن أردت ثقلمته وبشاعة
اسمه ، وهو من تراب إن أردت رخصه ومضايقته ، والرغبة
في كمنسه !

الوقت أثقل شيء على « وجدان » السجين وأخف شيء على
لسانه : كل دقيقة فيه محسوسة محسوبة ، وكل دقيقة فيه حسبة
يراد إسقاطها من الحساب ، وما هكذا يكون الوقت في
غير السجون

سل من شئت بين الوف السجناء عما بقي له من مدة سجنه وثق
أنه يغالطك في الجواب ، وثق أنه غالط نفسه قبل أن يغالطك
مرات ، بل ثق أنه لا يغالطك إلا ليستعين بذلك على مغالطة نفسه !
سألت أحدهم كم بقي لك من السنين ؟

فقال ثلاث ، وأنا أعلم أنه قد بقيت له خمس سنوات
لا تنقص إلا بضعة أيام . وإنما القاعدة عندهم أن يسقط السنة
التي هو فيها والسنة التي يخرج في نهايتها ، ولا يحسب إلا
ما بين السنتين !

ولهم في تقصير المدة على اللسان أساليب بعضها مصطلح عليه وبعضها من اختراع كل سجين على حسب ذكائه ومملكة استنباطه .

سألت سجيننا بقيت عليه سبعة شهور : كم بقي عليك من أشهر ؟ فقال : الربيعان والجمادان ورجب وشعبان ! قلت أو تخرج في شعبان ؟

فقال : سأخرج في عفو العيد ! أى في آخر رمضان فهو قد جمع الربيعين والجمادين في اسمين بدلا من أربعة أسماء ، وأسقط شهر رمضان كله لأنه لا يعد في الزمان وأعرف سجيننا كان سيخرج يوم الثلاثاء ، فلما بقي على خروجه ثلاثة أشهر أخذ يحسب المدة الباقية بالأسابيع ويختم الأسبوع بيوم الأربعاء ، حتى إذا وصل إلى الأربعاء الأخيرة لم يحسب ما بعدها وأسقط . بذلك ستة أيام

وكان لي جار مررت به أودعه قبل خروجي بيوم ، فقال لي إنه سيخرج بعدى بخمسة عشر أسبوعا . . . وأشار إلى خطوط على الحائط إلى جوار النافذة بعدة الأسابيع الباقية . فعمدت إلى خطين منهما فمسحتهما وقلت له : اننى أسقطت عنك هذين الأسبوعين كرامة لهذا التوديع !! فوالله لقد سر بذلك كأننى

مسحت الأسبوعين في مدار الأيام ، وشكرني على هذه النية أو هذه الأمنية ، وأحسبه قد عالج مشقة مرهقة في إعادة الخطين إلى مكانهما ، لأن هذه الاعادة تبدو له كأنها زيادة أسبوعين !

وعلى هذه المغالطة الشائعة ان تجد سجيننا واحدا يجهل الحقيقة أو يجهل عدة ما بقي له من الأيام باليوم ولو كان الباقي عدة شهور ، وسل من شئت منهم على غرة : كم بقي لك من يوم ؟ فإذا هو يجيبك توا بلا تفكير ولا إبطاء . . . إياك أن تستكثر هذه الأيام أو تظهر بالدهشة والأسف ما يدل على استكثارها وإن كانت كثيرة . بل كل ما يمكن أن تقول في لهجة الاستخفاف : تهون ! فيقول لك : لا هنت ، أو يكرر الكلمة على مسمعك قائلا : تهون ! تهون !

وإذا دخل الليمان سجين محكوم عليه بخمس سنوات أو نحو هذه المدة قالوا له : إنما أنت زائر ! واحتقروه كما يحتقر ساكن البيت ساكن الخان النزيل ! وأقنعوا أنفسهم بهذه المغالطة أن الخمس السنوات في الليمان خطب يسير

والشأن في هذه الخصلة شأن جميع السجناء بلا استثناء عالم أو جاهل وذكي أو غبي ومجرب أو غريب . فكلهم يسوسون مشكلة الوقت على هذا المنوال ، وكلهم يألفون المغالطة هذه

الآلفة ، وكلهم يستكبرون ما مضى ويستصغرون ما سيأتي
وسوف يأتي إلى يوم الافراج ، وهو يوم محقق الوصول عندهم
جميعاً كأنما الموت قدر مؤجل إلى ما بعد وفاء المدة ، أو
كأنما الانسان لا يخرج من دنياه إلا بعد خروجه من سجنه
أو منفاه !

قال الكاتب الروسي الكبير « دستيفسكي » يصف منفاه
وسجنه في سيبيريا : « من اليوم الاول بدأت أحلم بيوم
الخلاص ، وجعلت هجيراي أن أحصى ألوفاً وألوفاً من المرات
على ألوف وألوف من الطرائق والأنماط مقدار أيامي التي
سأقضيها في المعتقل ، وكنت أفكر في ذلك دون غيره ، وكل من
حرم الحرية فترة محدودة من الزمن فإنما يفكر على هذه الوتيرة ،
وإني من ذلك لعلي أتم يقين »

وقال في وصف الأيام الأخيرة : « لقد نسيت أموراً كثيرة ،
ولكنني أذكر - وبالشدة ما أذكر - كم كانت الساعات في السنتين
الآخرتين بطيئة بطيئة ، وكم كانت الأيام حزينة حزينة ، لا يلوح
عليها أنها ستقرب من مساء ولا تزال كأنها خضم من الماء ينحدر
قطرة قطرة ، وإني لأذكر كذلك أنني كنت مفعماً بشوق طاغ
إلى البعث والنشور من هذا القبر زودني بقوة على الصبر والانتظار

والرجاء ، ومن ثم تعودت الجلد والاحتمال وعشت على الترقب
والأمل ، وعددت كل يوم عابر . فان بقي من الأيام ألف فقد
أشعر بالارتياح لأن يوماً قد مضى ولم يبق إلا تسعمائة وتسعة
وتسعون ! »

وهكذا تعتصم النفوس بالمغالطات ، ويصيح المستغرب :
هل أغالط نفسي ! كأن الانسان لا يغالط إلا غيره ! وهو
لنفسه في الحقيقة أول المغالطين !

1871
The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

The first of the year
The first of the year
The first of the year

يوم الافراج

29 1/2 15

يوم الإفراج
أو يوم البعث والنشور
أو يوم الحرية

أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذى ينتظره مئات الأيام أو ألوف الأيام ، ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره لم تغتمض عيناه سرورا ببقياه وأوشك أن يطير فرحا بالوصول اليه . . . ! وهم على حق فيما يحسبون لو أن الشعور مما يقاس بأمثال هذه المقاييس التى تقاس بها الأحجام والأرقام . . . ولكن الشعور يجرى على منطق غير هذا المنطق وينقاد لأحكام غير هذه الأحكام . فيوم الإفراج يوم لا تهتز له نفس السجين بسرور عظيم ولا تقبل فيه على موعد جديد . وسبب ذلك هو بعينه السبب الذى يحسبونه جالبا للفرح واللهفة والتلهل والاعتباط ، وهو أن السجين قد انتظره مئات الأيام أو ألوف الأيام

يظل السجين ينتظره ويطل انتظاره ويتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبينه بالأشهر والأسابيع والأيام والساعات ، ويقدر ما يصنعه فيه ويعيد التقدير ويعيد الإعادة

ولا يفكر طوال ساعات الفراغ أو ساعات العمل في شيء غير هذا التفكير الدائم الدائب الذي يستنفد كل صورة وكل احتمال وكل خيال : حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا بالسجين يراه كأنه وجه قديم طالما رآه وأدمن النظر إليه وعرف ملامحه وقسماته خفية وظاهرة وكبيرة وصغيرة ، ولم تبق منه لمحة واحدة لم يرها ويحقق رؤيتها بدل المرة عشرات ومئات ، فهو منظر من مناظر الماضي السحيق المتغلغل في القدم والألفة ، وليس بمنظر طريف ولا بموعد جديد

والمساجين ينظرون كل يوم إلى المفرج عنهم ويعجبون لهم ما بالهم لا يطيطرون ولا يبتهمجون ! ويحسبونهم يتوقرون ويكتمون ما يخامرهم من شعور . حتى إذا جاء يومهم في الافراج عجبوا لأنفسهم بعد أن كانوا يعجبون الآخرين وهكذا كان من حظ بنى الانسان أن يستنفدوا السرور بالمتعة التي تطول الرغبة فيها ويطول انتظارها ، فلا يستشعرون السرور الصحيح إلا بانصاف الآمال أو بالمفآجات التي لا تخطر على البال !

ويخيل إلى أن أبخل البخلاء إذا انتظر مليون جنيه بعد عشر سنوات وهو على يقين من الوصول إليه عند موعد محقق لا خلاف فيه لأصبح هذا المليون وكأنه مبلغ في الخزانة داخل

في الحساب ، لا يشعر بالزيادة عند وروده ولا يشعر بفقده قبل يوم الموعد المنظور ، فهو ضائع من حسبانته في حالي الترقب والاستيلاء عليه ، وهو أقل من مائة جنيهه يغنمها ويشعر بزيادتها ولم يحسب لها ذلك الحساب الطويل

على أن اليوم - سواء عدته من أيام السعادة أو من أيام الفتور وقلة المبالاة - هو يوم ينطبع في الذاكرة وينطبع معه كل ما يلزمه من المناظر والمسامع والاحاسيس ، فهو محسوس به إحساساً عميقاً شديداً راسخاً في قرارة الوعي والبدية ، وذلك شيء أندر جداً من المسرات وأندر جداً من الأحزان

وإذا أراد الإنسان أن يشعر بأغوار هذا العمق فما هو بقادر على ذلك إلا إذا فوجيء في اللحظة الأخيرة بتغيير في الموعد أو خروج عن خط الانتظار المرسوم : هنالك يعالج شعور الفقد والشك بعد شعور الاطمئنان واليقين ، ويعلم أن تأخير ذلك اليوم ساعات معدودات هو بمثابة الحرمان المباغت من أعوام لا يحدها الاحصاء . . . وقد رأيت سجيناً يركبه البؤس والكرب والقنوط لأنهم أوشكوا أن يؤخروه يوماً واحداً خطأ في المضاهاة بين الأشهر العربية والأشهر الافرنجية ، فلما ردوا له ذلك اليوم الواحد اذا به يشعر بالخللاص منه أشد من

شعوره الأخير بالخلاص من الأشهر والسنوات

جاءني مأمور السجن عصر اليوم الذي سأغادر السجن في غده ، وقال لي إنه لا يعلم في أى ساعة سيكون الافراج ، فيحسن بي أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وإنه لهذا سيرسل لي الحلاق بعد هنيئة ليحلق رأسي ولحيتي التي مضت عليها ثلاثة أيام ، ولا يحب رجال السجن أن يخرج السجن من عندهم على هذا الحال ، لأن رؤية اللحية الطويلة تلقى في روع الناس أن السجن خارج من مكان يكثُر فيه الإهمال وتقل النظافة والنظام

والحلاقون في السجن هم حلاقون مسجونون يزاولون هذه الصناعة ويحسدوهم أصحاب « الأشغال » الأخرى لأنهم يرون أن الحلاقة عمل خفيف لطيف لا مشقة فيه ؛ وكانوا يزوروننا في الحجرة مرتين كل أسبوع فنسمع منهم قصص السجن بجميع أنحائه لأنهم يطوفون على جميع السجناء ، والعجيب أن هؤلاء الحلاقين على كثرتهم كانوا من المتهمين في قضايا المخدرات إما بالتعاطي أو بالاتجار ، وكانوا لهذا يعلمون من أخبار الحياة الاجتماعية العالية والوضيعة ما يشوق الإطلاع عليه ،

وقد نسوقهم إلى ذكره أن آثروا السكوت أو خشوا
رقابة الحراس .

أما في هذه الحلاقة الأخيرة فقد كان يعينني أن أفرغ منها
في دقائق عاجلة لانتى فوجئت بتغيير نظام الخروج ، وكان لا بد
لي من ابلاغ ذلك إلى أخى الذى كلفته أن ينتظرني بباقات الزهر
على مقربة من السجن حوالى الظهر موعد الافراج المعتاد ،
وقد كان ضريح « سعد » الذى أعددت له تلك الباقات على طريق
« قره ميدان » . . وكان يتردد بينى وبين أخى بالرسالة والجواب بعض
الموظفين وهم ينصرفون بعد العصر بقليل . فاذا فاتنى أن ألقى واحداً
منهم قبل انصرافه فقد اختلف التقدير واختل الحساب ، وقد أזור
ضريح سعد عقب خروجى ولكن بغير أزهار ، أو أזורه
ومعنى الأزهار ، ولكن بعد أن يبطل معنى هذه الزيارة التى
قصدت أن تكون أول ما أباشر من عمل الحرية

وشاء الخلاق أن يبتلىنى في هذه الحلاقة الأخيرة بكل
ما اشتهر به أبناء صناعته في أحاديث الغابرين والحاضرين من
حذقة وثرثرة ومضايقة وإعنات

والحق أنى كنت أسمع بهذه الشهرة وأقرأ روايات الرواة
عنها في كتب العرب والأفرنج فأحسبها من مبالغات الهازلين

لأن الله لم ينسكنى قبل ذلك بحلاق ثرثار . أما في ذلك اليوم فقد عرفت أن الحقيقة أكبر من مبالغات الجادين والهازلين في بعض الأحياء . وأخذ هذا الحلاق « الظالم » بحقوق جميع المظلومين من أبناء الصناعة !

وضع صاحبنا في ذهنه أتى خارج غداً وأن الناس سيقوتني فلا يلتفتون إلى شيء غير « حلاقي » النظيفة وغير العجب من أن أظفر بهذه الخلاقة الفاخرة بين جدران السجون !.. وسيتحدثون ولا يسألون عن شيء في حديثهم إلا أن يعرفوا اسم ذلك « الفنان » المغمور المدفون في تلك الغيابة المظلمة ، وسيلبثون منتظرين متشوفين حتى يأذن الله برده إلى حانوته المجهول فيتسابقوا إليه وينبئوا من كانوا يعبثون في رءوسهم ولحاهم من جهلاء الحلاقين ، ويحمدوا الله أن سعدوا بجلسة تحت يدي هذا النابغة العظيم

وضع صاحبنا في ذهنه هذا الخاطر فأحفي غاية الاحفاء وأمعن غاية الامعان ، ووفق يفهمني أنه ما من عدة يستعد بها الحلاقون في الأماكن المنتظمة إلا وهو قادر على الاستغناء عنها بحيلة من الحيل وبراعة من البراعات ، ومضى يحرب تلك الحيل وتلك البراعات حيلة وحيلة وبراعة وبراعة ليريني صدق ما يقول

رأى العين ، وأنا أقرظ. وأزكى وأعيد التقريظ والتزكية ، ولا جدوى ولا نجاة

وأخذت أنبهه الى أننى مستعجل وهو لا يتنبه ، وأرجوه أن يسرع وهو لا يزيد على قوله « حاضر » ثم ينساها بعد لحظة ، ويدأب على ما كان فيه كابطاً ما يكون الابطاء وأدق ما يكون التدقيق

وتمللت وهو لا يحفل ، وتأففت وهو لا يكثرث ، وظن أخيراً انه فهم لماذا أتململ وأتأفف وان « الدنيا » حر وقد كانت « حراً » حقاً لأن الشهر شهر يوليو والساعة ساعة الاصيل ، فلما قلت له بل انتى « انتفض » من البرودة ضحك وأغرب فى الضحك وظن انها « نكتة » وأنه وهو « واحد » من أبناء البلد لا يليق أن تفوته هذه النكتة دون أن يوفىها حظها من المزاح والتعليق ! فما العمل ؟

كل شئ يمكن اقتضابه إلا أن ينطلق الانسان بوجه نصفه مخلوق ونصفه غير مخلوق فغالبت غيظى وضحكى المكظوم من هذا الغيظ ، واتخذت كل ما يسعنى اتخاذه من هيئة الجد والاهتمام وقلت (انتى لا أستطيع أن أصبر فوق ما صبرت ، فاكثف بما صنعت واقنع بما أبدعت ، واجعل همك أن تتركنى

بعد دقائق قليلة على حالة تصالح لمقابلة الناس ، وأنا أتمم البقية
غداً فسيكون عندي متسع للاتقان والاحفاء

فاختلج كالمدعور وصاح بي : عيب يا أستاذ . . . ماذا
يقولون عنا اذا شهدوا هذه « اللـكـكـة » وهذه العجلة بغير
عناية ؟ ؟ أيقولون إننا لا نقدر الاستاذ قدره . . . أم يقولون
إننا صبيان في هذه الصناعة ؟ ؟

وفطنت لما يدور بخاطره وما يبنى به نفسه من ذلك الاعلان
المأمول . إفاحببت أن أضعه بعض ما فجعنى وقلت له وكأنتى
أطمئنه وأهدى روعه : لا تشغل بالك بهذا يا فلان ! انتى لن
أبوح لأحد باسمك ! .. فعجل ما استطعت وأرحنى أراحك الله ! !

فارتعب الرجل وخيل إلى أنه يوشك أن يدق صدره ويلطم
خديه ، وبدر على لسانه ما خبأ فى جنانه ، فصاح قائلاً : ماذا
يا أستاذ ؟ أتحرمنى هذا الشرف وأنا أنزع رصفائى عليه منذ أيام ؟
يا ضيعة المسعى ويا خيبة الرجاء ؟ أتكتنم إسمى كأنتى أسأت
وقصرت وأنا أقطع يدى وآتى بغاية ما عندى لأبلغ اليوم
قصارى الاحسان والاتقان ؟ ؟ . . . لا لا . . . يا أستاذ . . . كلها نصف
ساعة وينتهى كل شىء على مايرام . ولا عليك من اقتراب موعد

الاغلاق فان الحراس لن يضمنوا بفتح الباب لي إكراماً لك . . ولا سيما في عشية الوداع !

وكأنما كان هذا المنكود ملهما أن يشير قلقي ويدكرني ما أحذر وأتقى فان إشارته إلى « موعد الاغلاق » عصفت بالبقية الباقية من صبري فألقيت بالمنديل الذي ناطه بعنقي وهممت بالخروج إلى فناء السجن فلم يثنى عن انفاذ عزمي إلا أن الخروج على هذه الصورة يجمع حولي الحراس والموظفين ، إن بقي أحد منهم إلى تلك الساعة ، فلا يتيسر لي أن أتصل بمن أريد

أشهد أننى شعرت بغبطة الافراج كلها ساعة أفلت من يد ذلك الحلاق « راجى عفو الحلاق » لا عفى الله عنه . . فان حركة اليأس التى اندفعت اليها فى غير عمد ولا روية قدأ كرهته على قبول « التضحية » بفنسه واتقانه والرجاء فى شهرته وعرفان قدره ، فاستسلم للعجلة والندامة معا وانقلب إلى إبداء براعة السرعة وحذاقة الهرولة بعد براعة التؤدة وحذاقة الاستقصاء والاناة . وتبعنى بعد أن تركته وهو يستحلفنى ألا أنساه ، وأنا أقسم له اننى ان أنساه وان أردت نسيانه . . ثم انتهيت الى فناء السجن وقد تخلف فيه بعض الموظفين عمداً إلى ما بعد موعد الانصراف ، لأنهم قد علموا من الحراس بما

انبأني به المأمور فانتظروني ريثما أخرج من الحجرة لعل أفضي اليهم نبأ أو رسالة ، وقد تمهدت السبيل في اللحظة الأخيرة وخلا الجو للمقابلة والكلام ، فاسررت اليهم بما عندي وعلمت بعد ذلك أنهم أدوا الرسالة في أمان ، بل في إفراط من الأمان .. لانني علمت أيضاً بعد ذلك أن أناساً من هؤلاء كان معهودا اليهم أن يتلقوا رسائل الشفوية وينقلوها إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد وأنهم كانوا يوقعون بمن يخلصون في نقل رسائل مخاطرين مستهدين للغضب والعقاب ، ليستاثروا وحدهم بهذا الواجب المشكور المأجور

بت تلك الليلة كما أبيت كل ليلة ، ونمت كما أنام كل ليلة ، وأصبح الصباح فلم أكد أفرغ من تناول الافطار حتى وافاني الضابط في الحجرة يسألني : هل أنا على استعداد ؟ ؟ فقلت على أتم الاستعداد إذ اشعنت أن أفارقكم وأنا بملابس البيت ، أما إذا كرهتم ذلك فليس بيني وبين الاستعداد التام الا خمس دقائق ولاح عليه أنه ينتظر هذه الدقائق وهو مشفق من اغصاب رؤسائه ، لانني لم البث في الحجرة الملاصقة لحجرة المأمور الا دقائق معدودات تسلمت فيها ودائعي وانتقلنا بعدها مهرولين إلى سيارة مقفلة داخل السجن على أهبة المسير ، فما هو إلا أن استقررنا بها حتى فتحت

لها الابواب وطارت الى الميدان فالى شارع محمد على وهى لا تلوى على شىء ، وما زالت تعدو بهذه السرعة حتى بلغت سجن الاستئناف ، واسلمتنى اسلاماً جديداً الى مأموره ، فنقلنى نقلاً جديداً الى حجرة خالية ، واستنزلنى بعدها الى الفناء فى ساعة الرياضة ، وكانت نحو العاشرة ، ولا يزال باقيا على موعد الافراج عند الظهر ساعتان

على أننى لم البث ربع ساعة فى هذه الرياضة التى لا معنى لها فى يوم الافراج غير التزام القواعد والأصول ، وإذا بكبير من موظفى السجون يقبل على عجل ، ويسلمنى ودائعى مرة أخرى ، ويهتفى « بالفرج » ويتركنى فى كفالة ضابط يصاحبه رجل عملاق من رجال الشحنة الذين يعدونهم لأعمال العنف والتهديد ، ويمضى الموظف الكبير لطيته وأمضى أنا والضابط والعملاق إلى حجرات الموظفين بمحافضة العاصمة من طريق خلفية ، ثم إلى مركبة تهرب بنا إلى منزلى بمصر الجديدة من ناحية شارع فاروق فى أيام المحاكمة كانت الجلسات تبدأ الساعة العاشرة أو الحادية عشرة وكانوا يحضروننى مع ذلك فى أبان الشتاء القارس قبل الساعة الثامنة وقبل أن يأذنوا لأحد بالدخول الى قاعة الجلسة ، وقد فهمت سر العناية بهذا التبكير ، لأن النيابة كرهت

أن أدخل القاعة وهي مزدحمة فيقف الحاضرون تبجيلا لهذا
«المتهم» الذي يراد له الهوان ، كما فعلوا في الجلسة الأولى
وفي يوم الافراج فهمت سر العناية بهذا التبكير وهو اتخاذ
الحيطة للمظاهرات وزحام الاستطلاع

أما الذي لم أفهمه ولا أزال أجهله فهو هذا العملاق المعد
للعنف والتهديد ولا حاجة هناك لعنف ولا تهديد : إنني لن
أهرب من المركبة الهاربة ولا أخال ان عملاقا واحدا
يخيف الجماهير اذا تعطلت المركبة ووقفت في الطريق ، فلم يبق
إلا أنه حكم الصنعة كما يقولون ، وان الشرطة لا يتخيلون لهم
مهمة يؤدونها بغير تخويف ، لأنهم لا يكونون شرطة بغير
ذلك ! ، وإلا فما الفرق بين المزاملة والحراسة ؟ وما الفرق بين
السطوة والايئاس ؟

طارت بنا السيارة في مدينة معهودة غير معهودة ، وشائقة غير
شائقة ، كاتني أطراً عليها لأول مرة أو كأتني استذكرها بعد
غيبية طويلة ، ولا يمنعني أن أتلفت اليها تلفت الغريب الطارىء
الا أنني في فسحة من الوقت بعد فترة وجيزة للتلفت والاستذكار
ولا يحضرني انني التفت الى معلم من معالم الطريق غير مدرسة
الصناعة بالعباسية الوسطى . فقد كانت حديثه البناء فسألت عنها

الضابط فقال لى : نعم هى حديثة ، ولم يزد على ذاك
ولما شارفنا المنزل دعوت الضابط والعملاق لتناول القهوة
أو المرطبات فاعتذرا ، لأنه حكم الصنعة كذاك !
ولم يمنعنى كل هذا التحوط والروغان أن أعود من مصر الجديدة
إلى حيث أنجز البرنامج الذى عولت عليه قبل مغادرة السجن ،
فرجعت من حيث أتيت ، وزرت ضريح سعد وضريح ويصا ،
وتبين لى أن أختى وأصحابى كانوا يلاحقوننى من مكان إلى مكان ،
لأنهم كانوا يعلمون بانتقالنا من كل موضع ومخبأ ، على الرغم
من التخفى والاتاهة والاسراع

وجلست فى المنزل كما كنت أجلس ، ولقيت الأصحاب
وسمعت التهنئات . فأما الأصحاب فقد سرنى لقاءهم بعدو حشة ،
وأما التهنئات بالافراج فكنت كأنما أصغى منها إلى حكاية
قديمة أو حديث معاد

هل مضت على آخر جلسة فى هذا المكان تسعة أشهر ؟
لا أظن . . . أو أظن أنها مضت ونسخت نفسها بانقضائها ، فلم
أمكنث فى المنزل ساعات حتى خيل إلى أنى رجعت إليه ذلك
الضحى بعد أن فارقه ذلك الصباح !

بعض الشخصيات

تليخه شال خه

لبثت في السجن وخرجت منه ولست أذكر من سكانه
الذين يستحقون اسم « الشخصيات » غير ثلاثة أو أربعة من
أربعة آلاف انسان تحويهم جدرانها ، وهو عدد يساوى عدد
الرجال في عاصمة من عواصمنا المصرية المشهورة

ذاك أن « الشخصيات » في سجن مصر نادرة

فالسجناء هناك أرقام في حساب مصلحة السجون وهم كذلك
أرقام في حساب الطبيعة : كلهم مغمورون في بحر لجي من الضلالة
والخسة والتفاهة ، لا يعلو بينهم رأس فوق الغمار ولا تتباين فيهم
الخلائق والصفات إلا كما تتباين الموجة والموجة في بحر هادئ
ذليل ، لا تضربه العواصف ولا يعج ولا يلتطم

وهؤلاء « الشخصيات » الثلاثة أو الأربعة الذين أذكرهم من
سكان السجن هم أيضا خلقاء أن يغرقوا في غماره ، ويتواروا
في خموله لولا بعض الغرابة الملحوظة على اثبات ذلك الخضم
الواسع من التفاهة والفحاشة

فالغرابة إذن شفيعهم إلى الذكر والنباهة ! وليس شفيعهم
إلى الذكر والنباهة مزية إنسانية أو قدرة خارقة أو صيغة مستملحة
من ألوان الحياة الفريدة

أحد هؤلاء « الشخصيات » مجنون يتنازعه السجن
والبيمارستان

والثاني مجنون أيضا ولكن على طراز آخر من الجنون
والثالث مقعد مبتور الرجلين إلى الفخذين

والرابع - ان كان لا بد من تحقيق قولة الثلاثة والأربعة - خليط
من الجنون والعريضة والمكر والدماثة المصطنعة والجوح الصحيح
وكلهم يسكنون السجن على انفراد ، لأن الجمع بين واحد
منهم وزميل آخر في حجرة واحدة مستحيل

اننى لأتمشى ذات يوم فى فناء السجن إذا بشيطان أسود يقطر
منه النفط القذر يعدو هنا وهناك ويفر منه الجند والموظفون
من هذا ؟

هذا هو المجنون الأول نقيب ، ولنسمه بهذا الاسم القريب
من اسمه ولا نذكره باسمه المشهور مخافة المساس بهذه الشهرة
الحسنة والسمعة المبرورة ! وخشية المقاضاة ورد الشرف
والتعويض !

ولماذا صنع نقيب هذه الصنعة الكريهة بنفسه ؟ ولماذا
أغرق نفسه فى حوض النفط وهو بغيض إلى الشم بغيض إلى

الذوق بغيض إلى النظر ، غير مأمون على البشرة والحواس
والجوارح ؟
مكره أخوك لا بطل !

هجم على الخبز لا ختطاف رغيف ساخن ليس من حقه ،
فهجم عليه الحراس يوسعونه لكنزاً ولا كما ويقودونه إلى «سعادة
المأمور» ... تخير ما يصنعه نقيب في هذه الحالة أن يقذف بنفسه
إلى حوض النفط القذر لحظة واحدة يخرج بعدها كما رأيت
شيطاناً مرهوباً يفر منه من كانوا يطاردونه ، ويتقي لمسته من
كانوا يوسعونه ضرباً ولا يرسلونه من قبضتهم طريقة عين !

وراح نقيب يصول ويجول ويعيدو ذات اليمين وذات
الشمال ، وكل حارس حريص على كسوته يهرب من وجهه
ويستغيث بالسجناء المطلقين في الفناء لأنهم لا يخافون على
كسوتهم كما يخاف الجندي والحارس حتى شبع نقيب
من الصيلان والجولان ، وأنذره ضابط السجن بمسدسه فخضع
واستكان .

ويحييه المأمور الرجل الوقور ويصيح به : ما هذا يا هذا ؟ إنني
لا أريد أن أجن معك ... إنني سأرسلك إلى اليمارستان !! ...
فينظر إليه نقيب في جد لا شائبة فيه من الهزل والمجانة ، ويقول :

معاذ الله يا سعادة البك ! وهل نحن من أهل ذاك ؟

لا سمح الله !

ولنقيب مذهب في تقدير الجرائم والعقوبات يختلف من كل مذهب ماثور بين الناس في فلسفة الشرائع والقوانين كان على وفاق مع رجل قصير قميء من تجار المخدرات محبوس على ذمة التحقيق ، وكان الرجل يستظرف نقيباً ويلطفه بلحوم الدجاج والضأن والديكة الرومية والفاكهة والحلوى والمطبوخات من كل صنف تتسع له ثروة المتجرين بالمخدرات ويسعى أهل الفساد بين نقيب والرجل فيمنع عنه بره وسلامه وكلامه ، ويهيج نقيب هيئته الغضنفرية الحمارية الجامعة بين الزئير والنهيق ، وهو لا يحتاج إلى أكثر من هذا السبب للغضب والثورة والوعيد

فبعد أن يفرغ جعبته من الشتم والتعيير في بعض الأيام يسكت كمن يفكر ويتدبر ثم يقول :

من أنت يا أيها الحقير ! إني أحقك ... إني أسحقك ..
إني قد ضربت الدكتور فلانا وهو طول وعرض وقامة وهامة

وأخذت فيه أربعة أشهر . فأنا أقتلك وأنت « شبر نكد » ولا
آخذ فيك أكثر من أسبوعين . . . ويشاور القاضى عقله بعد
خروجه من المحكمة !

ولو اعتمد المشترعون مذهب نقيب فى تقدير الجرائم
والعقوبات لاستغنوا بمر فى كل محكمة عن كل هذه الأسفار
والمجلدات ، وكل هؤلاء المفسرين والشرح

وتسمع فى هدأة الليل لغطا وحركة ، وتسمع الحارس
يقول : من هذا ؟ وأولى به أن يسأل : من هؤلاء ؟

نعم من هؤلاء أولى ، لأنك تسمع غناء عبده الجمولى ،
وتقريظ الحاشية حوله ، وهتاف السامعين وضجة الطفيليين
الراغبين فى دخول الفرحة وغشيان السامر وما هم من المدعوين إليه

وكل هؤلاء هم « نقيب » وحده بلا مساعد ولا معين
لأن « نقيباً » كما ينبغى أن تعلم يحسن « التقليد والمحاكاة »
بعض الاحسان ، ويهوى الغناء من قديم ولا يعجبه غناء بعد
عبده الجمولى ومحمد عثمان ، ويضاف إليهما يوسف المنى لاوى مع
التحفظ والعطف وزم الشفتين !

وتسأله كل مرة يتحدث فيها عن مجالس الطرب القديم في عهد
اسماعيل : كم عمرك ؟ فيصر في كل مرة على أنه لم يتجاوز الأربعين !
مع كل هذا الجنون عاقل !
أو مع ما فيه من العقل مجنون !

وإذا تكلم نقيب فليس من يلجئه إلى السكوت ، وإذا
سكت فليس من يلجئه إلى الكلام
ولكن الخبثاء من سجناء المحاكم المختلطة — وأكثرتهم تجار
لبقون — يعرفون كيف يخرجونه من الصمت العنيد إذا
احتاجوا إلى مناوشاته وعربداته وأغانيه ، وهم أحوج ما يكونون
إليها في غياب المسارح والسهرات
هو — نذر ويحكى عن أهله وينسى بعد ساعة واحدة
كل ما قال .
وأنه في صمته العنيد ذات ليلة إذا بصائح يناديه : كيف
حال بهية !
وإذا بصوت ينفجر من ناحية الحجرة التي فيها نقيب : بهية
من يا ولد ! ؟

فنجيب التاجر الخبيث : بهية أختك ! بهية ذات الشعر
الأصفر ! بهية ذات العينين النجلاوين ! بهية ذات الردين
الثقلين ! بهية التي تلبس الرداء الأخضر ! بهية التي تسكن في باب
الشعرية !! بهية يا حسرتي على بهية !!

وكل هذه أوصاف سمعها التاجر وسمعها « العنبر » كل ليلة
من الليالي الغابرة من فم نقيب دون غيره ، ونسبها نقيب

ويصدق صاحبنا ما سمع ، ويشوب إلى نفسه وكأنه يناجيها :
« صدق من قال لا أمان للنساء ! » والعجيب أن « بنت
الكلب » أوشكت أن تدفعني إلى الموت لأنها شكت إلى رجلا
يغازلها ويسد المنافذ عليها ، فبطشت به ولم ينقذه من يدي إلا
عمره لك حق يا فلان . اذهب فاصنع بها ما تشاء !!
ثم يرجع ثائراً ويندم على هذا « التفويض » وينادي
التاجر : إياك يا هذا أن تصنع بها شيئاً : والله بعمر ك ! والله
الحكاية كلها مشوار من هذه الحجرة التي أنا فيها إلى بيتك ومن
بيتك إلى هذه الحجرة التي أنا فيها وعوض الله عليك في
عمر ك : أسمعت ؟

نعم سمع ، وسمع العنبر كله ، وهذا هو المقصود

وأعترف أنني قد عرفت من نقيبنا هذا شيئاً كثيراً من طبيعة
الشاعر القديم ، أو الشاعر المداح الهجاء : عرفت أن كل ما
يتوخاه ذلك الشاعر في فنه هو أن يقول للممدوحه إنني أريد أن
أرضيك بالشناء وترضيني بالعطاء ، وهي صفقة معقودة علانية
بعلم المادح والممدوح والسامعين ، لا حاجة فيها إلى الصدق
ولا إلى المعاشرة ولا إلى الاخلاص ولا إلى شيء غير البضاعة
والثمن ، والبضاعة هي المدح الظاهر والثمن هو العطاء الظاهر ،
وكان الله يحب المحسنين

نقيب لم يكن يعرف أحدا من سجناء المحاكم المختلطة الذين
كانوا يبرونه بالحلوى والجبن والادام ، ولكنه يعرف دائماً
أن الذي يعطيه قطعة من الحلاوة الطحينية أو شريحة من الجبن
رجل سرى يملك سيارة فاخرة تخطف الهواء ويركبها الركب
وهو حذر على طربوشه أن يطير . . . وأنه يملك قصرًا باذخاً
في بعض الضواحي دخله هو وأكل فيه ولم ينفذ إلى حجرة
استقباله إلا بعد أن عبر خمسة بوابين ، ويعرف أن الحرير أنجس
ما يلبسه الخدم في ذلك القصر الباذخ فضلاً عن السادة والسيدات !
وهو يجهر بهذه المعرفة ليلة العطاء العلني المشهور المذكور بين سائر
السجناء . . . وينادي أحداً زملاء ليحدثه جهره بهذا كيانه يعني أن

يكشف له سرّاً في غياب الممدوح.... لأنه لا يخاطب الممدوح
وإنما يخاطب سواه.... فالكلام إذن لا تملق فيه ولا تزوير
ولا محاولة إرضاء أو جزاء

نعم... ويعرف نقيب تماماً في اليوم التالي أو اليوم الذي
بعده أن ممدوحه هذا بعينه صعلوك بن صعلوك. لا يملك سيارة
وإنما هو « حمار سبخ » لا يساوى شلنين!! ولا يملك قصراً
بازخا وإنما هو كوخ في عرب الحمدي يذنبى وينهدم في يوم!!
ولا يلبس الحرير وإنما هي ملاة الفرش القديمة يرقعها ويفصلها
جلايبب... والظريف أن يكون جلاباب الممدوح أو المهجور
ذلك اليوم من نسيج منقوش بالمربعات التي تنقش بها ملاات
السرير.... فالشاعر على هذا لا ينسى بعض الحقائق وبعض
المناسبات!

ذاك هو المجنون الأول

أما المجنون الثانى فقد كنا نعجب له كيف اتسع وقته لزيارة
البيمارستان وهو لا يفارق السجن إلا ليعود إليه، وكيف يفارق
البيمارستان إذا دخله مرة وهو أقرب إلى أهله من أهل السجن
قال لى هو انه قضى فى السجن أكثر من عشر سنين، وقال

لى أحد الحراس انه قضى فيه ثلاث عشرة سنة كلها أحكام مقطعة
بين ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو سنة ، وهو يعيد نفسه إلى السجن
كل ما أخرجه عند انتهاء أمدته على الرغم منه ، وما عليه إلا أن
يخطف ما يخطف أو يضرب كل من صادفه أمامه صالحا
« للانضراب » ثم يدع للحكمة والشهود والمجنى عليه أن يحلوا
اللغز ويكشفوا عن سر الجريمة بين مضروب لا يعرف الضارب
و ضارب لا يعرف المضروب

وقد سرى إلى قرارة خلده شعور صادق بضرب من « الملكية »
للسجن بحق المكث الطويل فيه ، فسمعتة يوما يتحدث مستخفا
غاية الاستخفاف عن مأمور السجن الذى مضت عليه فى الوظيفة
سنوات ، ويدكره باسمه وهو يناجى بعض أصحابه قائلا : من
هو « فلان » المأمور هذا ؟ ! . إتنا لا نسمع به إلا هذه الأيام ! !
وهذا المخلوق — وليكن اسمه عماسا على طريقتنا فى تسمية
نقيب — هو النشوز بعينه لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يراقب
أحواله ويستقصى أخباره

وجهه ناشز وصوته ناشز وأخلاقه وأعماله نشوز فى نشوز ،
ولكن المدهش فى نشوزه انه على استواء واحد كأنما ينشز بقاعدة
مرسومة ، فاذا غنى اليوم وأعاد الأغنية بعد عشرة أيام فوق

النغمة في الأذن واحد وهي مع ذلك ناشزة في كل مرة على نحو مختلف من النشوز . فليس التشابه في أغانيه كتشابه الاسطوانة التي تعاد والدور الذي يضبط ويدار على لحن واحد ، ولكنه مع ذلك تشابه لا يحكيه أحد سواه

ولا ريب عندنا في أن أساسا هذا على حظ من مزاج الشاعرية يناسبه ويمثله في الهبوط والتفاهة ، فهو اذا احتواه الليل بين أركان حجرته رفع عقيرته وخاطب تلك الحجرة الجافية معددا لها شواهد حبه ودلائل غرامه ، وانها هي التي تعلق بها وتعلقت به فقيها مشتاه ومصيفه وإليها منقلبه ومآله ، ولديها معتصمه وملاذه من المأمور وغير المأمور ، وعليه نظافتها وجلأؤها ، وبينه وبينها ما ليس بين الزوج وزوجه من رحم ومودة

ومن أجل هذه الأغاني سماه السجناء والحراس « أساس الأوضة » لأنه يسمى الحجرة « أوضه » ولا يسميها زنازة كما تعرف في قاموس السجون

وللجراية عنده أنشودة أخرى تجاري حركة التوزيع ساعة تفريق العدس والخبز عليه وعلى الزملاء : قرب يا شاو يش ... وهات الجراية !! واغرف يا شاو يش ... وفرق الجراية وانصفنا يا شاو يش واشبعنا من الجراية وهكذا من

قافية الشاويش إلى قافية الجراية حتى ينتهى التوزيع وينصرف.
السجناء وهم يرددون ما لقنهم إياه شاعرهم عساس

وتمام العلم بنشوز هذا المخلوق الغريب أن تعلم أنهم نقلوه
من «أوضته» العزيزة عليه إلى قسم التأديب فاراد أن ينتقم من
المأمور فماذا صنع؟؟ عمد إلى الصفيحة التي تنشط إلى صدره
وعليها رقمه فشحذها وقطع بها إحدى خصيتيه!

أما ثالث الثلاثة أو الأربعة الذين يستحقون اسم
«الشخصيات» بين أولئك النكرات فليس هو بمجنون ولا
بمجنول ولا بشاعر أو فنان ، ولكنه رجل مقعد يمشى على
خشبة ذات مكرّ يدفعها بمقبض في كلتا يديه كما يدفع السابحون
زوارق الحمام

ولا يخاف السجناء مجنوناً في ثورته كما يخافون ثورة هذا
المقعد الكسيح

ويخطئ القارئ إذا فهم من قولنا «ثورته» أن الرجل يشورها
متهاجاً مغلوباً على أمره كما يشور الغاضب المحنق ، أو الطائش
الآحم كلا! فإن الرجل ليشور لأنه يريد أن يشور ، بل

محتاج الى أن يشور ، فشورته في كل مرة لا تأتي إلا بروية
وتدبير وتقدير

وجلية أمره أنه سجين مخدرات وأنه في السجن ما زال
يتجر بالممنوعات والمهربات ، وأهمها وأنفسها التبغ والكبريت
ولعله يكسب في السجن أضعاف ما يكسبه من السموم
المهربة وهو طليق

فاذا استضعفه أحد من عملائه وظن أن هذا العاجز الكسيح
أهون من أن يحسب له حساب أو يؤدي له حساب — فالويل
للأحمق المأفون من عاقبة جهله وغروره : انه لمغلوب ولو كان
أقوى الأقوياء ، وأنه لن ينجو من الجروح والرضوض وإن لم
يظفر به الكسيح كبل الظفر ولم يهزمه كبل الهزيمة ، فبينما الخصم
القوى الواقف على قدميه لا يناله في مقتل ولا مأمن إذا بذلك
الكسيح يتناول كبل مانالته يدها ويقفز ويندفع ويكر ويفر كأنه
الديك الصائل لا تمسكه العين في حركة واحدة أو موضع واحد ،
وسلاحه في كبل ذلك تلك الخشبة التي يجلس عليها وذلك
المقبض الذي يحمله في كلتا يديه ، ولا تنتهي المعركة إلا وهو
أربح الخصمين وأسلم المضروبين

هـذا المخلوق هو مثال القوة التي تخلقها الحاجة إليها ،
واستضعاف الناس لمن لا يحسبونه من أهلها

بقي الرابع المرشح لتكملة العدد ، ولك أن تحسبه أو تسقطه
من عداد هذه النخبة المباركة ، فلست أعرف له من معالم
« الشخصية » إلا أنه يضطرك إلى رؤيته ويفرض عليك
وجوده . فاذا أقبل شبح من بعيد في غرارة من غرارات العقاب
المفتوحة عند المكتفين فغالبا ما يكون الشبح المقبل هو « الون »
بعينه وإذا رأيت كسوة حمراء من كسي التأديب تقترب
في عنف وعجلة فاقرب الاحتمالات إلى الصواب أن « الون »
هو صاحب تلك الكسوة الحمراء ، وإذا لم يكن بين المصطفين
للجلد فهو لا محالة بين المصطفين للتحقيق أو بين المصطفين
للفحص الطبي في غير مرض ولا انحراف مزاج ، وإذا لم تسمعه
مغنيا في هذه الطبقة فهو ولا ريب صائح أو صاخب في الطبقة
المجاورة ... فليس هو « شخصية » لأنك تحب أن تراه أو يهملك
أن تراه ، ولكنه « شخصية » لأنك لا بد أن تراه وإن
كرهت مرآه

وأظرف عربداته الكثيرة أنه طرأ له يوماً من الأيام أن

يصطنع الخرس والصمم فلا سمع ولا جواب ، ولنج في اصطناعه
حتى حاول أن يعمى الأمر علىّ وهو يزعمني من أصدقائه
وخلصائه ولا يدارى عني ما يداريه عن الضباط والحراس
المبغضين ، فلما سألته : أصبح أنك لا تسمع ولا تتكلم ؟ لمعت
عيناه ولم ينبس بحرف ، وتباله بسمياه كما يتباله الصم المغلقون ،
الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يفقهون

ولم تمض دقائق على هذا التمثيل الغبي حتى سمعته في غرفة
العمليات الجراحية يردد بعض العبارات الانجليزية بأعلى
صوته ، ويحيب الطبيب على كل سؤال يلقيه عليه ، وإنما
الفضل في شفاء خرسه المصطنع للدواء المرقد الذي خدره به
الطبيب فحجب إرادته وأطلق لسانه !

وقد أظلم السجن اذا أنا جزمت بأن الأربعة الذين أجملت
وصفهم هنا هم كل من فيه من ذوى « الشخصيات » والغرائب
الملحوظة ، فغاية ما أجزم به أنهم هم كل من أذكر الآن من
رأيت ، ولعل لهم أشباها ونظراء لم أرهم والحمد لله ولا أسف
على ما فات

ذلك إنى بليت بمن لقيت من هؤلاء الأربعة بعد خروجي

من السجن بلية لا يؤسف على فواتها ، فمنهم من كان يلقاني في
شوارع العاصمة فلا يدعني دون أن يتقاضاني ضريبة لقاءه ،
ومنهم من كان يحيني تحية زملاء الرصفاء كلما بصرني في ناد
أو طريق ، وعرف أولهم « النقيب » طريق داري فحاصرني
فيها مراراً لا يبرح الدار اذا حضر حتى أخرج أو أعود ، وأسوأ
ما في الأمر أنه لم يكن يحضر إلا وهو سكران طافح معقود
اللسان مسترذل الحديث

قلت له آخر يوم وقد دعوت له الشرطي : يا نقيب ! إنك
تحتاج الى سجن لتكون ظريفاً وقانا الله من ظرفك وأنت سجين
ومن مضايقاتك وأنت طليق . فاذهب ولا تعد ، وإلا أعدتك
مع هذا الشرطي الى حيث لا أراك
وذهب ولم يعد حتى الآن ، لا أعاده الله

الجرية والعقاب

سومرست موام Somerset Maugham كاتب انجليزي
مستفيض الشهرة له مؤهلات كثيرة لمعرفة الطبيعة الانسانية ، لأنه كان
طبيباً ومريضاً في وقت واحد فهو عليم بما في الانسان من ضعف
وما يشتمل عليه من اثره وعطف . وهو كاتب قصاص يتتبع
« الشخص » وينقب عن أسرار الطبائع وبواعث الأخلاق
ودخائل الآداب المصطلح عليها بين الطبقات . وقد اشتغل
« بالجاوسية » أيام الحرب العظمى فعاشر الساسة والمغامرين
وعرف كيف يستدرج الناس الى افشاء الأسرار والوشاية
بالأعداء والأصدقاء والوقوع في اشراك المطاردين والرقباء ،
وكيف يزل أصحاب الدعوات والمثل العليا من أجل مطمع
أو مظهر أو شهوة أو غواية ، وكيف يستهين بالحياة البشرية
من ليس له غرض في اتلافها غير المال والمتاع ، وكيف يقبل
الشرفاء استخدام الاثمة والاخساء عند ماتعن لهم المصلحة العامة
أو المصلحة الخاصة ، وكيف يتوارى الناس وراء دعوى الوطنية
أو الغيرة على الحضارة والحرية لقضاء اللبانات وشفاء الحزازات
والترات ، وقد زاده علماً بطبيعة الانسان انه ساح في الغرب
والشرق سياحة متفرج وسياحة مستطلع مستخبر . فاعانته هذه
المؤهلات كلها مع الفطنة الوقادة والبديهة الحاضرة على استكناه

النفوس والنفاذ الى ما وراء الظواهر واختبار دعوى الخير والشر
في الصالحين والطالحين على حد سواء

هذا الرجل الكيس اللبيب يروى بلسان مدير الشرطة في
بعض البلاد الاسيوية قصة عن « أسرة موقرة » مؤلفة من
أب وأم اشتركا في قتل زوج المرأة السابق ولهما بنت هى بنت
الخليل وان كانت منسوبة إلى الخليل ، وقد حدثت جريمة القتل
لأن المرأة حملت وزوجها السابق لا يشك في سفاحها إذا ظهر
عليها الحمل . فدبرا الجريمة قبل أن يفتضح السر ونجحا في إخفائها ،
ثم انقضت الأيام والسنون والأسرة تعيش في سلام لا يعكر
صفوها معكر ولا ينغص عليها العيش بمكيت الضمير ولا
يجترى . أحد على الايما اليها بمسبة أو اهانة

ويقول سامع القصة لمدير الشرطة سائلا

لاأظن الزوجين قد نسياما اقترفا ؟

فيجيبه المدير : « انى لن أدهش اذا كانا قد نسياه . فان
الذاكرة الانسانية قصيرة الأمد قصراً يُستغرب ، ولئن سألتنى
رأى من الوجهة الفنية لم أحجم أن أبوح لك بأننى لا أعتقد أن
الندم لا اقتراف الجريمة يرين ثقيلًا على ضمير انسان اذا كان على
يقين من كتمان سره »

ويعود سامع القصة فيسأل : « ألا تشعر بشيء من النفرة أو القلق وأنت جالس الى هؤلاء القوم ؟ أنا لا أرغب في انتقادك ولكنى أرانى مضطراً أن أكشفك باننى لن أحسبهم مستطيعين أن يكونوا أناساً لطفاً ! »

فيجيبه المدير : « إنك فى هذا لآنت على خطأ . إنهم أناس جد لطفاً ، وهم معدودون هاهنا بين خيار القوم . والسيدة كارتريت على الخصوص « معتبرة » أنيسة المحضر ، ومن عملى أن أمنع الجريمة وأن أعتقل المذنب بعد وقوعها ، ولكن خبرتى بالمجرمين أكبر من أن تدعى أظنهم على الجملة شراً من الآخرين . وقد تدفع الضرورات رجلاً دمثاً الى اقتراف جرم محذور فيكشف ويناله الجزاء ، إلا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلاً دمثاً كما كان . نعم ان المجتمع يعاقبه على انتهاك قوانينه وهو حق لا نزاع فيه ، ولكن أعمال الانسان ليست فى كل حين هى دليل باطنه الخفى وجوهره الصميم . ولو انك زاولت صناعة الشرطى كما زاولتها عهداً طويلاً لرأيت أن المهم فى أمر الانسان هو كيف يكون لا كيف يعمل ، وماذا هو لا ماذا صنع ومن دواعى الغبطة ان الشرطى لا شأن له بافكارهم وأعماله شأنه كله متصل بأعمالهم ، ولو كان الامر على غير ذلك لاختلف جد الاختلاف

ولعاد أصعب مما هو الآن بكثير »

وخلاصة الرأى الذى يذهب اليه الكاتب الخبير ان كثيراً من المعاقبين يشبهون كثيراً من غير المعاقبين ، وان بعض الجناة اذا أفلتوا من الجزاء لم يميزهم أحد بوسم خاص أو علامة ظاهرة بين سائر الناس

ولهذا الرأى أنصار كبار بين رجال القانون المؤهلين لدراسة هذه الأمور ، وفي طليعتهم المحامى الأمريكى النابه « كلارنس درو » (١) صاحب كتاب « الجريمة وأسبابها ومعالجتها » وهو حجة فى هذا الموضوع لسعة علمه ووفرة القضايا الجنائية التى درسها ودافع عن جناتها ، والقضايا الجنائية فى أمريكا مدرسة زاخرة بالمعارف والعظات لا يتاح نظيرها فى الأقطار الأوربية أو الشرقية ، لأن جرائم الحضارة الحديثة فى أمريكا قد بلغت من الاتقان والتنوع مبلغ الفنون المحكمة التى تستنفد جهود المحققين والقضاة والمحامين

وفى وسعنا — بل الواجب علينا — أن نفهم هذا الرأى دون أن يتقاضانا فهمه أن تتبعه ونسترسل معه الى تسابيح البعيدة فملاشك فيه اننا نستطيع أن نؤمن بهذا الرأى ونستطيع أن

تؤمن معه بالحقائق الضرورية لمنع البغى على المجتمع ومنع البغى
على الجناة والمسيئين

فهما يقل القائلون في تساوى بعض المعاقبين وبعض الناجين
من العقاب فهناك حقيقتان ليس فيهما خلاف بين الباحثين في
موضوع الجريمة والعقاب : أولا هما ان المجرمين الذين يشبهون
سائر الناس يستحقون أن يعاقبوا لأنهم مسؤولون عن أعمالهم ،
والثانية ان المجرمين الموسومين بالشذوذ الخلقى يحتاجون الى
عناية الطب كما يحتاجون الى علاج الشريعة

يرى « كانت » ان عقاب المجرم واجب وحق ولو لم تكن
له نتيجة غير جزاء العمل بمثله ومقابلة الاضرار بالأضرار . فان
العدل البديهي يأمر بان من يؤلم يتألم ومن يسيء يساء ، والضمير
الانسانى يأبى أن يرى شقياً معذباً ومن يشقيه ويعذبه يغدو
ويروح آمن السرب مستريح البال ، ولو لم يتماد فى الايذاء
والتعذيب

أما أصحاب الفقه الحديث فلا يحسبون من عمل المجتمع أن يتولى
تطبيق العدل البديهي على هذا المنوال ، وانما يطلب المجتمع عقاب
المجرم لاصلاحه أو للوقاية من شره ، وكل ما عدا ذلك عبث
لا يفيد ولا يليق

فمنذ أصبح عقاب المجرم حقاً للمجتمع ولم يعد حقاً للمعتدى عليه أصبح العقاب لمحض الانتقام والتشفي رذيلة لا تليق ولا تؤدي إلى المصلحة الاجتماعية ، وليس يليق أيضاً أن تعاقب المجرم لردع غيره وإرهاب الناس من مثل مصيره ، فإن هذا معناه كما يقول المنكرون لمذهب الردع والتمثيل إنك تعذب زيداً لأصلاح خالد ، وهذا إن صح أن العبرة بمصير المجرمين تردع أحداً ممن تسوقهم ضرورة الطبع أو ضرورة الحوادث إلى الاجرام ، وهو في اعتقاد هؤلاء المنكرين غير صحيح

فاذا كان الغرض من العقاب هو إصلاح المجرم وحماية المجتمع فهل السجن على أحسن نظمه ومقاصده مما يحقق هذه الغاية ويكفل للمجرم الإصلاح والمجتمع الحماية؟

الحق أن فكرة « السجن » عتيقة جداً ظهرت في تاريخ الانسان قبل أن تظهر فكرة العقاب للإصلاح والوقاية الاجتماعية بآلاف السنين . فقد كان السجن في بداية الأمر مكاناً لاعتقال الأسرى أو المحكوم عليهم بالموت ، ثم أصبح مكاناً للتخلص من بعض المغضوب عليهم أو الواقفين في طريق ذوى السلطان ، ثم جاء العصر الحديث فحسبنا أن أستبقاء السجون وإتخاذها مكاناً للعقاب وتنفيذ القانون على سنة من سلف أمر لا يحصى

عنه ولا ضير فيه ، مع أن قليلا من التدبير يرينا أن « فكرة السجن » قابلة لكثير من المناقشة والمراجعة في العصر الحديث وإن الأمم قد يأتى عليها يوم تستغنى فيه عن السجون بته وتعدل عنها إلى طريقة أصلح منها لتنفيذ القانون ، وربما كان هذا اليوم غير بعيد بالقياس إلى ما غبر من تاريخ السجون

أما إذا اتخذنا السجن « مستشفى » لعلاج المرضى المطبوعين على الجريمة فمن الواجب إذن كما يقول « كلارنس دارو » أن نجعل توقيت العلاج في السجون كتوقيت العلاج في المستشفيات فنحن لا نرسل المريض إلى المستشفى ليمق فيه سنة وإن شفى في ثلاثة أشهر ، أو ليخرج بعد أيام وإن كان شفاؤه يحتاج إلى أعوام . فلا بد إذن من وسيلة لعرفان الوقت الذى يحسن فيه الافراج عن السجين بغير ارتباط سابق بموعد معروف لا يقبل التعجيل والارجاء

إن تجربتى للمجرمين « المطبوعين » الذين يصلون إلى السجون دلتنى على أنهم قلما يكونون إلا واحداً من اثنين : فإما رجل معطل الحس بآلام الناس وقد يكون معطل الحس بآلام نفسه وأقرب الناس إليه ، وإما رجل مختل الارادة لا يضبط نزواته في ساعة الهياج أو ساعة الاغراء ، وكلا هذين لا تنفعه السجون الحاضرة على أحسن ما ارتقت إليه من

تنظيم وتعليم ، وإن حاجته إلى العلاج والعناية النفسية لأشد من حاجته إلى العقاب والايذاء ، لأن الايذاء يوسع الهوة بينه وبين المجتمع الانسانى وهو محتاج الى من يقرب المسافة بينه وبين أبناء جنسه ويمحو من نفسه انه عدو يحارب الأعداء ويحاربونه ومن اليوم إلى اليوم الذى تلغى فيه السجون ونهتدى فيه إلى طريقة أصلح منها لحماية المجتمع وتنفيذ القانون يخيّل إلى أننا لا نملك وسيلة للإصلاح فى هذا الصدد خيراً من استخدام الرقى العلى والتقدم الصناعى فى مطاردة الجريمة وكشف أسرارها قبل وقوعها وبعد وقوعها إلى زمن طويل ، وقد نصل إلى المستطاع من تحقيق هذا المقصد إذا رفعنا طبقة الشرطة وزودناهم كما نزود المحققين بالأساليب العلمية التى تعين على مطاردة أعداء المجتمع وتعقبهم قبل الاجرام فى دور النية والشروع ، وبعد الاجرام فى دور الهرب والتضليل

والآن تسكنى لمسة للرصاصة التى فى داخل المسدس لاثبات علامة يسهل رسمها وتحقيق شخص اللامس الذى استخدم الرصاصة بمضاهاة الرسم على أصابع المتهمين ، ويقال إن بعض العقاقير إذا عولج بها المتهم حجت إرادته وأفضى بدخيلة سره ، ومن هذه العقاقير الكلورال والسكوبولامين (Scopolamine and Chloral) وهى التى يقال ان مكتب التحقيق فى روسيا

إستخدامها لاقتناع المتهمين فى قضايا « الخيانة العظمى » بالاعتراف وإفشاء أسرار المؤامرات المزعومة. وقرأت فى مجلة الفورم Forum وصفا لأساليب صناعية ونفسية يهتدى بها المحقق إلى المتهمين بغير خطأ كثير ، ومنها أداة كهربائية يقبض عليها المتهم ويواجهه المحقق بالأسئلة المربكة وغير المربكة فتسجل الأداة مقدار اضطرابه وأفراز جلده للعرق ولو كان يسيراً ، لأن هذا الإفراز يضعف مقاومته لتيار الكهرباء فيظهر الأثر على الفور فى موضع التسجيل قال هنرى مورثون روبنسون كاتب المقال :

سألت الاب « سمرز » أن يجرب معى هذه الاداة فعمد الى تجربة خلاصتها أن يطلعنى على عشر ورقات من ورق اللعب وأن أنتقى واحدة منها فى ذهنى ولا أبوح بها لغيرى ، فاخذت ورقة القلبين الاثنين ثم عرضت على الاوراق واحدة بعد واحدة والاب سمرز يسألنى اهذه ورقتك ؟ فلما عرضت على ورقى تعمدت الانكار وقلت لا وأنا أراقب موضع التسجيل على الاداة لارى الأثر الذى يظهر عليه ، وقد حاولت جهدى أن أحتفظ بسكيتى وقلة اكترائى ولكن الاداة الكهربائية سجلت اضطرابى اليسير جداً مرة بعد مرة حتى اضطرت الى الاعتراف «

وأشار الكاتب الى أسلوب « نفسى » يعتمد على تداعى

الخواطر للكشف عن سرائر المتهمين ، فإذا كانت التهمة سرقة
مائة دولار في محفظة سوداء من درج مكتب وضع المحقق خمسين
أو ستين كلمة وتلاها واحدة بعد واحدة على المتهم وطلب منه
أن يعقب على كل كلمة بغير روية . فإذا تريت المسؤل أكثر من
ثانيتين ونصف ثانية وهى المدة الطبيعية للتعليل فهناك وجه للريبة ،
وإذا تليت عليه بين الكلمات كلمة مائة دولار ثم كلمة درج ثم
كلمة مكتب ثم كلمة محفظة ثم كلمة سوداء وأطال الوقوف عند
كل منها فهو إذن يعلم شيئاً يريد إخفاءه ويحفل من ظهوره

هذه أساليب مفيدة لا يحسن إهمالها وترك البحث فيها ، ولكن
ينبغي مع التوافر على دراستها أن نذكر : « أولاً » أن العقاقير
الحاجة للإرادة قد تمكن المحقق من إملاء الاعتراف على المتهم
وإرهابه حتى يخاف الإفشاء بسبب الاعتراف ، وأن نذكر
« ثانياً » أن العقول تختلف فى قوة المعارضة وسرعة الجواب
فيتلجلج المسؤل وهو برى . ويخشى أن يحسب المحقق هذا التلجلج
دليلاً على اتهامه ، فيضطرب ويزداد اضطرابه كلما ألح عليه هذا
الخاطر ولمح من المحقق ما يؤيد وهمه ، وربما أعانت سرعة الخاطر
إنساناً آخر على تحضير الجواب المناسب دون أن يظهر عليه
من الاضطراب ما يلفت النظر أو يريب

وأن نذكر « ثالثاً » أن إتقان أساليب التحقيق لا بد أن
يقابله من الطرف الآخر إتقان أساليب الاجرام وتخصص المجرمين
في دراسة أساليب الشرطة وأساليب المحققين والاستعداد لها
بما يحيطها ويتغلب عليها. فتنشأ عصابات المجرمين المعروفين
« بالمخترفين » والاختصاصيين، ولا يبقى من المتهمين من تفلح معهم
تلك الأساليب غير الافراد المعروفين « بالهواة » لأنهم
لا يجيدون الحرفة ولا يتعاونون فيما بينهم على إتقانها
فلا ينبغي أن ننسى أن الأساليب العلمية لن تستأصل الجريمة
من الدنيا ولا يمكنها على كل ذلك لازمة ونافعة، لأنها وسيلة لا يصح
إهمالها ولا محيص لنا من استخدام كل وسيلة مستطاعة في هذه
الحرب التي بقيت منذ أوائل عهد الناس بالاجتماع، وستبقى على
ما نرى من أحوالنا المعهودة الى زمن لا تعرف له نهاية

بعض الاصلاح

ج ۱۸۵۱

في انجلترا يقسمون المسجونين لآجال بعيدة الى أقسام :
يمتد القسم الأول الى ثمانية عشر شهراً والثانى الى سنتين ونصف
سنة ، والثالث أو القسم المخصوص ينتقل اليه السجين بعد أربع
سنوات ، ومزية هذا القسم أن يعطى فيه السجين بنفسه كل يوم
ويزاد كل سنة خمسي بنس الى أن تكمل الأجرة اليومية بنسبن
ولا يزداد عليها بعد ذلك ، ويباح لسجين القسم المخصوص أن
يشترى التبغ والحلوى من أجرته اليومية ، وأن يشتري صحيفة
أسبوعية وما شاء من الكتب المباحة سواء من أجرته أو من
هدايا أصحابه

ومزية القسم الثاني الذي هو دون القسم المخصوص بعض
التحسين في الملابس والفراش والتوسعة في الرياضة والألعاب
وشراء الصحف وما إليها

ويتوقف الكثير من هذه المزايا على احراز درجات السلوك
وهي ثمانى درجات لكل يوم ، ومن استوفى المقدار المطلوب
من هذه الدرجات أسقط عنه ربع المدة واستحق التوصية عليه
بعد خروجه لتدبير عمل له ومورد معيشة

وفي السجون مكاتب تبلغ عدة الكتب في بعضها اثني عشر
الف مجلد ، وتتل على السجناء أخبار العالم مرة كل أسبوع مخصصة

من الصحف السيارة ، ويباح لهم سماع الاذاعة وأغاني «الحاكي»
ولعب الشطرنج وبعض الألعاب الرياضية ، وتلقى عليهم
المحاضرات في موضوعات شتى يختارها مدير السجن أو قسيسه ،
ويسمح لهم بالتمثيل وتنظيم الحفلات في أيام الأعياد ، وطعامهم
على العموم خير في مادته وفي تنويعه من الطعام المسموح به
للسجناء المصريين ، أما العقوبات فهي كما في مصر الجلد والسجن
المنفرد وغذاء الخبز والماء

ويؤخذ من رواية هانس فلادا (١) الألماني ومن بعض
الرسائل الأوربية أن حالة السجنون في أوروبا تقرب من هذه الحالة
وتشبهها كل المشابهة أو بعض المشابهة بغير اختلاف في الجوهر ،
إلا روسيا فإن للسجن فيها نظاما مفرطا في التوسعة والترفية
نعتمد في وصفه على كتاب السير جيمس برفس ستوارت
« رحلة طبيب في روسيا الشيوعية » (٢) إذ يقول من كلامه على
مدينة موسكو :

« كل حجرة على بابها مذبح ، والفرش نظيف ومريح ،

(1) Who once eats out of the Tin Bowl by
Hans Fall ada.

(2) A physician's tour In Soviet Russia, by sir
James Purves — Stewart

والتوافد المشبكة بقضبان الحديد واسعة ، والأبواب تترك مفتوحة إلا ما بين الساعة الواحدة والساعة السادسة بحيث يتيسر للسجناء أن يتزاوروا كما يحبون . وقد مررنا بحجرة مغلقة أغلقها السجين باختياره فلما شعرنا بفتح الباب ودعانا إلى زيارته وأخبرنا أنه حكم عليه بالسجن عشر سنوات لاختلاسه واحداً وسبعين ألف روبل من مصنع سكر ، وإنه مفرج عنه ذلك اليوم وهو معتبط متهلل بعد أن قضى في السجن ست سنوات وعشرة أشهر وسبعة وخمسين يوماً وعوفي من قضاء المدة الباقية لاجتهاده وحسن سلوكه ، وقال لنا انه وجد وظيفة كتابية في مصلحة التجارة بسبعمائة روبل مشاهرة وسيبدأ العمل فيها على أثر خروجه

« ويأكل السجناء في حجراتهم ريثما تنفي في السجن حجرة واسعة للمائدة العامة ، ويطلب من كل سجين أن يعمل ثمانى ساعات كل يوم تتخللها ساعة للطعام ، وينقسم السجناء إلى قسمين فمن كان منهم أمياً يجمل الكتابة وجب أن يتعلمها على يد زملاء له من الذين كانوا مشغولين بالتدريس خارج السجن ، أما المتعلمون فيباحقون ببعض مصانع السجن ليمارسوا صناعات يدوية معظمها من قبيل الغزل والنسج والخياطة والزر كشة ، ولهم على ذلك مرتب يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين روبلا مشاهرة

تودع بأسمائهم في خزانة السجن وتسلم إليهم يوم الافراج ،
 ويسمح للسجين أن ينفق حصة من مرتبه في شراء الملابس
 والتبغ واللوازم ما عدا المشروبات الروحية فهي محذورة ، وله
 بعد قضاء سنة يوم أجازة كل أسبوع يقضيه في بيته ، وتزداد
 الأجازة إلى اسبوعين خلال السنوات التالية ، أما إذا كان
 السجين فلا حافله أن يقضى ثلاثة أشهر في قرينه أثناء الحصاد ،
 وللأصدقاء والأقارب أن يزوروا كل سجين مرة كل عشرة أيام
 أثناء السنة الأولى ومرة كل خمسة أيام فيما يلي ذلك من السنين ،
 وليس للسجين كسوة خاصة ولا سلاح في أيدي الحراس الداخليين
 لأنهم يختارون من بين السجناء وتعقد لهم لجنة لمعاقبة زملائهم
 الذين يخالفون النظام ، وإنما يقصر حمل السلاح على الحراس
 الخارجيين ، بل قد تشرف اللجنة على تصرفات موظفي السجن
 وتقتحح التعديل في بعض النظم المرسومة

» وهناك جماعة للتمثيل وأخرى للشطرنج وقسم للتصوير
 وقسم للموسيقى وقسم لهندسة الآلات ، ومكتبة فيها ستة آلاف
 مجلد تشتمل على التاريخ والصناعة والأدب والروايات ويشرف
 عليها كتي رقيق في الثالثة والعشرين يقضى سنتين لاقتراه جريمة
 شهوية ينجل من التحدث عنها إلا بانها تقع تحت طائلة المادة

١٨٢ من قانون العقوبات. وقد حولوا كنيسة السجن الى مسرح جميل وأزالوا الحواجز التي كانت تفصل كل سجين عن زميله عند شهود العظة الدينية

« وكل يوم من أيام العمل يحسن السجين أدائه يعفيه من يوم ونصف من أيام العقوبة . وأيام العمل خمسة والسادس للراحة ، ومن يقصر أو يتكاسل يعاقبه زملاؤه بالحرمان من الاجازات والزيارات والمسليات وبعض المزايا الأخرى

« وفي السجن حمامات معتادة وحمامات تركية ساخنة ، وقد شاهدت حجرة الحلاق يغشاها عدة سجناء للتزيين والتجميل ، والأجرة عشرون كوبكا لحلاقة الذقن وثلاثون لقص الشعر وخمسة وأربعون للتدليك وثلاثون للتعطير وستون لحلق الرأس كله . أما قص الشعر كما يقص عادة في السجن فهو بالمجان

« وفي السجن صيدلية ومستشفى يديره طبيب « غير سجين » وممرضة ويشرف على مطبخ المستشفى شيخ طريف ذو عوارض وشوارب طوال يتلهى بلفها على أذنيه ! وعقوبته عشر سنوات لقتله امرأته غيرة عليها ! وطبيب الاسنان يقيم في الحجرة التي كانت من قبل حجرة سوداء وهي الآن مضاعة واسعة النوافذ ، ومن هنا وهناك في الابهاء العامة والحجرات عمدان الدعاية

وصحف مصورة يكتبها السجناء الخ الخ
هذا نظام السجن في موسكو كما وصفه الطبيب الانجليزى
الكبير ، ولم يقل لنا ماهى نتائجه فى الحياة العامة ولكنه روى
على اثر هذا الوصف ان السجناء لا يحاولون الفرار ولا
ينصرفون من السجن فى اجازة أو زيارة إلا عادوا اليه . وهذا
طبيعى لا غرابة فيه بعد ذلك الوصف ، وفى وسعنا أن نتخيله
بغير مشاهدة ولا أخبار

نقول ان هذا النظام مفرط فى التوسعة والترفيه لأننا نعتقد
أن ضرره أعظم من نفعه ، إذ المقصود من الرحمة بالسجين ان
يجتنب الايلام الذى لا ضرورة له ولا منفعة فيه ، وليس المقصود
أن نحول السجن الى متعة يشتمها بعض الطلقاء ويؤثرونها على
حياة البيت ومتاعب الحرية

ونتيجة هذه التوسعة على السجناء فى روسيا غير واضحة
فى الاحصاءات الرسمية ولا فى الكتابات التى اطلعنا عليها . ولكننا
نستطيع أن نقيسها على ما حدث فى الهند وهى بلاد تشبه روسيا
وتشبه مصر فى طبقة المعيشة اذا صرفنا النظر عن نظام الحكم
وعن الرخاء الذى تمتاز به البلاد المصرية . قال مستر رايت
Wright الذى كان مفتشاً للشرطة فى أقاليم الهند الوسطى :

« أذكر في بعض أيام الشدة والكساد التي ندر فيها الغيث وجام
الفلاحون انه رأى من المصلحة أن يشار على القضاة باصدار
أحكام الجلد على صغار السراق بدلا من إرسالهم الى السجون ...
فنجع العلاج وأتى بالنتيجة المطلوبة ، ثم تبين ان جرائم السلب
والسطو التي هي أعنف من السرقة الصغيرة تكفل لمقترفيها قضاء
العقوبة في السجون فاخذت هذه الجريمة في الزيادة السريعة ،
وأذكر في الأيام التي هي أروج من ذلك وأرغد ان أناسا تعمدوا
السرقة ليستريحوا في أكناف السجون . . . »

وقد رأيت في سجن مصر من أعترف لي بمثل ذلك ، ورأيت
سجيننا آخر يتخفى ولا يجيب نداء الحارس الذي يدعو المطلقين
كل يوم ، لانه يرجو أن ينساه الحراس ويظل في السجن اياما
أخرى بغير عقوبة !

أن « نسبة » السجناء في مصر تلفت النظر بالقياس الى كثير من
الامم في أوربا واسيا وأفريقيا . ويؤخذ من الاحصاء التقريبي
المقارن الذي جمعته لجنة « عصبة الامم » الموكلة بشؤون الجزاء
والمسائل الجنائية ونشرته قبل بضعة أشهر أن عدد السجناء في
مصر يبلغ مائة وستة وأربعين من كل مائة الف من جملة السكان
في حين أن هذه النسبة تنقص الى نحو تسعة عشر في حكومة

ايرلندة الحرة ، وسبعة عشر في فلسطين ، وخمسة وستين في زنجبار
وستة وخمسين في اليابان ، وسبعة وخمسين في استراليا ، وهي
تزيد في بعض الامم حتى تبلغ ثلثمائة وثلاثة وثمانين في « سيرة
ليون » ومائتين وخمسة وسبعين في استونيا ، ومائتين واثنين
وثلاثين في حكومة اتحاد افريقية الجنوبية ، وقريبا من هذه
النسبة في بلاد شتى من أمم الحضارة . ولكن النسبة في مصر
تلفت النظر مع هذا لان الامة المصرية لم تشتهر بحب الاجرام
كما اشتهرت بعض الامم التي لم تألف الحضارة والنظام ، فهل
لا يثار معيشة السجن على معيشة البيت دخل في زيادة عدد
السجناء ولو بين طبقة الاراذل والخلعاء ؟

يجوز هذا في نطاق محدود وحالات قليلة . ولكن ازدياد النسبة
عندنا مرجعه فيما نظن الى سبب آخر غير اثار معيشة السجن
على معيشة البيت ، وهذا السبب هو تعاقب عصور الظلم والعسف
والاستبداد حتى أصبح ضحية القانون وطريدة الحاكم موضع
العطف لاموضع الازدراء ، وأصبح دخول السجن لا يعيب
صاحبه كما يعيبه في عهود الحرية والانصاف ، وسيزول هذا
السبب رويدا رويدا ويعجل به الزوال كلما فهم الجهلاء والمنبوذون
أن الخروج على الشريعة عداوة للمجتمع وليست عداوة للحاكم

الظالم والحكومة الطاغية ، وسبيل ذلك هو التعليم والتربية الخلقية
واصلاح المعيشة الاجتماعية لا تصعب معيشة السجون وتعتمد
القسوة على السجناء .

ونحن كما أسلفنا في حل من كل تحسين ينقذ السجناء من
الايلام الذى لا ضرورة له والتشخيص الذى لا نفع فيه ، ولا يغلو
الى الحد الذى يغرى بالاجرام والاستخفاف بالعقوبة .

ومن هذا التحسين فرض الكتابة والقراءة على الأميين
وتدريب الصناع على صناعاتهم حسب الاصول الحديثة وتعليم
من لا يحسنون الصناعات حرفة يدتغون بها الرزق والمعيشة
الشريفة ، وتخصيص درجات لمن يجتهدون فى تعلم القراءة
والكتابة أو فى تعلم الصناعات واتقانها تحسب لهم فى نقص مدة
العقوبة وتوفير وسائل الراحة ، وتخول من يحصل عليها عند
خروجه من السجن أن تضمنه الحكومة فى عمل أو وظيفة ولو
جازفت ببعض المال لتعويض الخسائر ووفاء الضمانات ، فقد
ثبت أن البلاء الذى يعانىه السجين بعد السجن أشد وأنكى من
بلائه بالاعتقال وضياع الحرية . لأن الناس ينفرون منه
ويسئئون الظن به ولا يأتمنونه على سعى ولا تجارة ، فاذا امنوا
عاقبة السرقة والاختلاس اقدموا على استخدامه وانتفعوا بكفاءته .

ولم يحذروا غدرات طبعه ، واستطاع كثير من الموصومين ان يستعيدوا حظهم من حياة العمل النافع والمكانة الاجتماعية ولا ضير من اباحة التدخين والأطعمة المنوعة والملابس الخارجية على أن يكون ذلك كله مزية يكافأ بها المستقيم ويحرمها المقصر والمسيء ، بل هذه المزايا خليقة ان توفر للحراس والرقباء اسباب العقوبة الزاجرة المعقولة وهى حرمان السجين بعض المزايا المشتهاة اذا اساء وخالف النظام ، بدلا من معاقبته بالجلد والمشقة والاعنات .

فقد رأيت كثيراً من السجناء يباهون بالقدرة على احتمال الجلد والمشقة ولم أر سجيناً واحداً يستخف بأكل الخبز القفار ولزوم العزلة والحبس عن الرياضة ، فاذا كثرت المزايا كثرت الرغبة فيها والاجتهاد فى تحصيلها وكثرت وسائل العقوبة الأدبية التى تليق ببنى الانسان ، وقلت الحاجة الى العقوبات البهيمية التى ترهق البدن ولا تصلح النفس ، بل تعودها الفخر بما هو أدعى الى المهانة

والسجناء فى سجون سيبيريا وجزيرة الشيطان وأمثالها من سجون أمريكا الشمالية والجنوبية ينامون على أسرة خشبية ، ولا ينامون على الأرض كما ينام جميع السجناء المصريين ما عدا

المرضى والمحكوم عليهم في المحاكم المختلطة . فلماذا يجبر السجين
المصرى على الرقاد فوق « البرش » والأسفلت وهو ولا شك
فراش لا تحتمله بنية الهزيل المهدد بالأمراض ولا تؤمن
غوائله في الشتاء ؟ إن الرقاد على لوح من الخشب ليس من الترف
في شيء ، ولكنه أصبح وآمن وأدنى إلى الكرامة والتهذيب ...
فما نحن بحاجة إلى تعليم الفقراء المصريين فضيلة النوم على التراب !
هذه التحسينات كلها ميسورة لمصلحة السجون المصرية ،
ولها أن تظل على يقين أنها تستطيع توفيرها جميعا ثم يبقى
السجن بعد ذلك سجنا يخيف من يخاف ويهذب من يتهذب ؛ بل
يبقى سجنا ومدرسة ومستشفى ! وهى الأما كن الثلاثة التى تعودنا
أن نهرب منها ونحن صغار ونحن كبار !!

فهرس

صفحة	صفحة
١٠٣ احمد حمزة	٣ كلمة تقديم
١١٧ التسلية فى السجن	٧ الى قره ميدان ✓
١٣١ برج بابل	١٥ الليلة الاول فى السجن ✓
١٣٩ الطعام ومطالب الجسد	٢٥ التهريب ✓
١٥١ الوقت	٣٧ القراءة ✓
١٥٩ يوم الافراج	٤٩ المنع والترخيص
١٧٥ بعض الشخصيات	٦١ أخلاق ١
١٩٣ الجريمة و العقاب	٧١ أخلاق ٢
٢٠٧ بعض الاصلاح	٨١ الوعظ.
	٩٣ ليلة المستشفى

تصحیحات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٦	٥	وقت	وقد
٤٥	٤	yaou	you
٦٩	١٣	الطبقة	الطبيعة
٧٣	١	تسير	تسير
١٠٩	٤	الصورة	الصور
١٤٦	١٤	ييلز	نيلز
٢٠٠	١٧	فحسبنا	فحسبنا
٢٠١	١	التدير	التدبر
٢٠٤	١٣	المعارضة	العارضة
٢٠٥	٤	يحيطها	يحبطها

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدايق

لصاحبها مصر محمد واضوء

تليفون ٥١٣٩٤

التمن	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٤٠٠	للدكتور حافظ عفيفى باشا	الانجليز فى بلادهم
١٠٠	» طه حسين بك	أديب
٨٠	للمرحوم احمد شوقى بك	الشوقيات الجزء الثالث
٥٠	للاستاذ حسين عفيفى المحامى	مناجاة
٥٠	» » » »	وحيد
٨٠	للاستاذ محمد ثابت	جولة فى ربوع أوروبا
٨٠	» » »	» » آسيا
٨٠	» » »	» » إفريقيا
٨٠	» » »	» » الشرق الادنى
٨٠	» » »	» » الأمريكتين
١٠٠	» » »	» » استراليا
٧٠	للاستاذ محمد صابر	حياة القراءة

التمن	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٦٠	للدكتور سعيد عبده	الجمعة اليتيمة
١٥٠	للأستاذ ابراهيم رمزي	باب القمر
٢٥٠	» » »	محمد
٢٠٠	للأنسة بسيمة زكي	المطبخ الشرقي
١٠٠	» محمد شوكت التوني	جهاد الأمم في سبيل الدستور
٤٥٠	» يوسف عبدالعزيز حموده	الأمراض التناسليه
٢٥٠	» أحمد خليل عبد الخالق	رعاية الطفل
٥٠	للرحوم محمد عبد الرحيم ترة	كليلة ودمنة بالصور
٣٠٠	محمد عبد الرحمن حافظ	أصول المحاسبة وامساك الدفاتر
٧٠	لويس اسكندر	الانسان والبيئة
١٥٠	اسماعيل مظهر	فلسفة اللذة والالم
٦٠	اسماعيل مظهر	مصر في قيصرية الاسكندر المقدوني
	اسماعيل مظهر	الحب الأول قيصر وكيلوباترة
١٥٠	للأستاذ صابر	مصر تحت ظلال الفراغة
٢٠٠	للأستاذ عباس محمود العقاد	سعد زغلول
٦٠	» »	شعراء مصر
٤٠٠	عبد العزيز مهنا	اقتصاديات النقل

والمكتبة تحوى أكبر مجموعة من احدث المؤلفات والمجلات
والكتب ادبية وعلمية انجليزية وعربية

DATE DUE

Manaa Asil 74/436

JAN 29 1981

PJ
7814
Q6
Z5
1937

المقاد و عباس محمود
عالم السدود والقيود

NAME	STATUS
Manaa Asil	74/436

JAN 29 1981

PJ
7814
Q6
Z5
1937

JAN - 1978

